البحوث

وثائق أرشيفية عن تعمير عين زبيدة بمكة المكرمة عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م

د. خليفة إبراهيم حماش

يتناول البحث عددًا من الوثائق التاريخية المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي عن "عين زبيدة" المنسوبة للسيدة زبيدة بنت جعفر المنصور زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، التي أوقفتها في سبيل الله لتزويد الحجيج وسكان مكة بالماء، وتعرض الوثائق إحدى عمليات الإصلاح التي أجريت على هذه العين بعدما تهدمت أجزاء منها، وتتمثل في تأسيس لجنة من أعيان مكة المكرمة برئاسة الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الحنفية بمكة آنذاك، ويركز البحث على مهمة الأمير عبدالقادر الجزائري التي كلّف بها من طرف اللجنة، المتمثلة في قيادة حملة تبرُّع ومراسلة شخصيات علمية وسياسية في تونس لحثهم على ذلك.

Archival Documents on the Reconstruction of Ayn Zubaydah in Makkah al-Mukarramah in1880

Dr. Khelifa Ibrahim Hammache

This study, which is based on 17 historical documents kept in the Tunisian National Archives, pertains to Ayn Zubaydah – that is attributed to Zubaydah bint Jafar al-Mansur; wife of the Abbasid Caliph Harun al-Rashid. She endowed this well for the sake of Allah in order to provide pilgrims and residents of Makkah al-Mukarramah with water. The documents show the reconstruction efforts carried out on Ayn Zubaydah after some of its components had been destroyed. The reconstruction process included the formation of a committee of prominent Makkans, and dignitaries to collect fund for such works.

قدم للنشر في ١٤٣٤/٥/١٤هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٥/١١/٢٦هـ

جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة – الجزائر

Emir Abdelkader University of Islamic Cciences
Faculty of Arts and Islamic Civilization

hammachekha@yahoo.com

يعد الأرشيف الوطني التونسي واحدًا من الأرشيفات الغنية بالوثائق التاريخية على مستوى العالم العربي والإسلامي؛ فعلاوة على الوثائق المتعلقة بتونس، فإن به وثائق أخرى متعددة تتعلق بالبلدان العربية والإسلامية، بالمشرق والمغرب. وضمن هذه الوثائق الأخيرة رصيد معتد به يخص الحرمين الشريفين، وما يتعلق بهما من حج وصدقات مختلفة من تبرعات وأوقاف[1]. ومن الوثائق التي وقعت عليها أيدينا عند البحث في هذا الأرشيف وأردنا أن نقدمها في هذا العمل، وثائق تتعلق بواحد من أهم المعالم والعمائر التاريخية في البلاد الإسلامية، وهي العين التي في مكة المكرمة وتنسب إلى واحدة من أشهر النساء في التاريخ الإسلامي في القيام بالأعمال الخيرية، هي السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٨٧٦-٨٠٩م). وتعرف تلك العين اليوم كما كانت

(١) حول الوثائق الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي عن الحرمين الشريفين، راجع: الإمام (رشاد محيي الدين)، **الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة العربية في تونس**، بحث قُدم في: أعمال الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، من تنظيم قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، (المملكة العربية السعودية)، الرياض، ١٩٧٧م. وراجع أيضًا: حسن أبو علية (عبدالفتاح)، **دراسة في أهم مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر**، مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، دار المريخ، ١٤٠٢هـ/ ٢٠٠٢م، (فصل: خزينة الوثائق في تونس). وزيادة على ذلك هناك دراسة متخصصة أنجزت حول الحرمين الشريفين من خلال الوثائق التونسية هي: العجيلي (التليلي)، **أوقاف الحرمين الشريفين بالبلاد التونسية ١٧٣١-١٨٨١م**، زغوان (تونس)، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٨م.

تعرف في الماضي، باسم "عين زبيدة". وكان سبب بنائها قلة المياه بمكة المكرمة، وما كانت تحدثه من عطش لسكانها والحجيج. ولما بلغ ذلك الخبر مسامع السيدة زبيدة قررت أن تُسخّر جزءًا من أموالها لتنفيذ مشروع ضخم يفي بحاجات مكة المكرمة من الماء، ومن ثم جاء إنجاز ذلك المعلم التاريخي الذي لا يزال قائمًا منذ ذلك العصر إلى يومنا هذا[٢].

ولأهمية تلك العين في تزويد حجاج بيت الله وسكان مكة المكرمة بالماء، فإنه كان لها خدم يهتمون بشؤونها ويحرسونها، ابتداءً من منبعها في وادي نعمان إلى مكة المكرمة، وبلغ

(٢) حول تاريخ عين زبيدة منذ إنشائها بشكل عام، راجع: الزواوي، المصدر السابق؛ غباشي (عادل محمد نور عبدالله)، **عين زبيدة بمكة المكرمة تاريخها وآثارها**، محاضرة ألقيت ضمن فعاليات معرض التراث العمراني بمكة المكرمة، يوم ٩ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ (٢٢ مايو ٢٠١٠م)، ونشرت في الموقع الإلكتروني لجامعة أم القرى، بمكة المكرمة (http://uqu.ed.sa/news/ar3697)؛ غباشي (عادل محمد نور عبدالله)، **المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني (دراسة حضارية)**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى (مكة المكرمة)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٧٨ -٨٢؛ الغازي (عبدالله)، **إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام**، مج٢، ط٢، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٢٨٧ -٢٨٩؛ أرسلان (شكيب)، **رحلة الارتسامات اللطاف في خاطرة الحاج إلى أقدس مطاف**، أبوظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ص١٧ -١٨، ٣٨ -٤٠؛ الزركلي (خير الدين)، **الرحلة المسماة: ما رأيت وما سمعت من دمشق إلى مكة**، تحقيق: مفيد نجم، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، ص٥٤ -٥٦. وذكر المصدر نفسه (ص١٠١) أن حجم تدفق الماء في عين زبيدة بلغ في عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م كما قدرته لجنة مختصة، ما قدره ٦٣ (ثلاثة وستون) لترًا في الثانية، وبلغ في الساعة الواحدة: ٢٢٦ (مئتين وستة وعشرين) مترًا مكعبًا من الماء (٢٢٦٨٠٠ لتر).

عددهم في بعض العصور ثلاثمائة رجل[٣]. وكانت تخصص لهم في العهد العثماني مبالغ مالية يقتسمونها فيما بينهم، ضمن الصدقات التي ترسل كل سنة إلى مكة والمدينة من البلاد الإسلامية وتسمى "صرة الحرمين الشريفين"، وذلك ما كانت تقوم به البلاد التونسية على سبيل المثال[٤]. وقد عرف ذلك المعلم التاريخي منذ إنشائه عمليات تعمير[٥] (إصلاح) متعددة بهدف إصلاح ما تهدم منه بفعل العوامل الطبيعية من

(٣) أرسلان، المصدر السابق، ص٣٨.

(٤) العجيلي، المصدر السابق، ص١٤٠. وحسب المصدر المذكور فإن "خَدَمة عين زبيدة بمكة المكرمة" خصص لهم في السنوات الممتدة بين (١٢٦١ و١٢٧٨هـ/ ١٨٤٥ و١٨٦٢م) مبالغ تراوحت بين ٢٦ و٥٠ محبوبًا (عملة ذهبية) توزع بينهم.

(٥) تعمير: عمَّر (بميم مشددة)، فيقال: عمّر المكان تعميرًا، بمعنى أصلحه وبناه وجعله آهلاً. والتعمير هو الإصلاح. مختار عمر (أحمد)، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، القاهرة، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، مج٢، ص١٥٥١. وبهذا المعنى استخدمت في الوثائق موضوع الدراسة هنا، فنقرأ: "تألف[ت] هنالك جمعية من أساطين علماء مكة المكرمة وشرفائها [...] قاصدة تعمير ماء مكة المشرفة، الشهير بعين زُبيدة" (راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ). وبالمعنى نفسه استخدمها عبدالله الزواوي في مؤلفه حول تاريخ عين زبيدة، فنقرأ: "في سنة ألف وتسعين [من الهجرة النبوية] طغى الماء بسبب السيل وحصل خراب عظيم، فجاء الأمر السلطاني [...] بتعميرها فعمروها". الزواوي (عبدالله بن محمد صالح)، **بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة زبيدة أم الأمين**، ط١، المطبعة الخيرية (بمصر)، ١٣٣٠هـ، ص٢٢. واستخدم المصدر نفسه في مواضع أخرى (ص٢٤) لفظة إصلاح، فنقرأ: "اجتمع جماعة من علماء مكة المكرمة [...] وعوّلوا على جمع المال من أهل البر والإحسان لإصلاح عين عرفات وإصلاح عين حنين".

سيول وانجراف للتربة وغيرها، وكانت واحدة من عمليات التعمير تلك التي بدأت في عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، وتأسست من أجلها لجنة مكونة من أعيان معتبرين في مكة المكرمة، من علماء وتجار ووجهاء، وعُيِّن لرئاستها الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الحنفية بمكة (١٢٤٩ -١٣١٤هـ/ ١٨٣٣ - ١٨٩٦م)، ولأمانة المال الحاج عبدالواحد الميمني الهندي. ومما قررت اللجنة القيام به من أجل جمع الأموال الكافية لعملية التعمير التي أرادت القيام بها، مراسلة أعيان المسلمين في الأقطار الإسلامية المختلفة، من علماء ورجال سياسة وتجار ووجهاء، وتكليفهم بجمع التبرعات المالية من المسلمين وإرسالها إلى اللجنة للنفقة منها في عملية التعمير(٦). وهذا الجانب من نشاط اللجنة هو الذي تتعلق به الوثائق التي تشكل موضوع هذا العمل، وسنعرضها في أربعة عناصر: أولها التعريف بالوثائق، والثاني نص الوثائق، والثالث: دراسة تحليلية لموضوع الوثائق، والرابع التعريف بالأعلام الذين ذُكروا في الوثائق، وأُنهي العمل بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، وأضيفت إلى ذلك ملحقات احتوت على صُور للوثائق المعتمدة في البحث.

أولاً - التعريف بالوثائق:

هذه الوثائق محفوظة في الأرشيف الوطني التونسي الكائن مقره بمدينة تونس (العاصمة)، ويبلغ عددُها بالمفهوم

(٦) راجع تفصيلات ذلك في: الزواوي، المصدر السابق، ص٢٣ -٢٧. ومن الدراسات الحديثة في الموضوع راجع: غباشي، **المنشآت المائية** ...، مصدر سابق، ص٢٠٤ -٣١٦.

الأرشيفي للوثائق[٧] سبع عشرة (١٧) وثيقة، أما من حيث الموضوع فوثيقتان اثنتان فقط، والوثائق الباقية نسخ لهما كما سنبين ذلك لاحقًا. وتلك الوثائق محفوظة ضمن القسم المعروف باسم "السلسلة التاريخية" التي تعد من أثرى أقسام الأرشيف الوطني التونسي[٨]، وذلك في الملف ذي الرقم (٩٢٩) من الصندوق ذي الرقم (٧٨). أما الأرقام التي رتبت تحتها تلك الوثائق في الملف المذكور فهي من (٤٦) إلى (٦١)، مع ورود واحد من تلك الأرقام مرتين، وهو: (٦٠) و(٦٠ مكرر). ويحمل الملف الذي فيه الوثائق عنوانين: أحدهما قديم وداخلي، كتب على وجه الملف الذي حفظت فيه الوثائق لأول مرة، وهو بقلم تقليدي وخط مغربي[٩] وحبر أسود، وهو: "مكاتيب وأوراق السيد الحاج عبدالقادر بن محيي الدين الحسيني الجزايري". والعنوان الآخر حديث كتب على الوجه الخارجي للملف الذي أعادت إدارة الأرشيف ترتيب الوثائق داخله في السنوات القليلة الماضية، وكتب

(٧) وذلك لأن كل وثيقة لها رقم في ملف من الملفات بالأرشيف، تعد وثيقة قائمة بذاتها حتى وإن كانت نسخة لوثيقة أخرى غيرها.

(٨) السلسلة التاريخية: يضم هذا القسم من الأرشيف الوطني التونسي (٤٤١٠) ملفات، موزعة على ست (٦) مجموعات هي: وثائق البايات (حكام تونس) وكبار الموظفين، ووثائق هياكل الدولة ومراسلات قادة وحدات الجيش مع السلطة المركزية، ووثائق وزارة المالية، ووثائق وزارة العدل، ووثائق وزارة الحرب والبحرية، ووثائق وزارة الخارجية ومنها نصوص المعاهدات. (لمزيد من التفصيلات راجع الموقع الإلكتروني للأرشيف الوطني التونسي: www.archives.nat.tn).

(٩) يظهر ذلك من الشكل الذي كُتبت به الحروف، وكذلك من النقطة الواحدة التي وُضعت فوق حرف القاف في اسم عبدالقادر.

بقلم جاف حديث وبخط معتاد يجمع بين الخطين المغربي والمشرقي، وهو: "مراسلات صادرة عن الأمير عبدالقادر بن محيي الدين الحسيني الجزائري المقيم بالشام، خاصة بتقديم تهاني وشكر ومدح لوزراء وقضاة تونسيين ومطالب متعلقة بتوسيم وإقامة بالبلاد التونسية". وتُمثل تلك الوثائق مراسلات للأمير عبدالقادر الجزائري (١٢٢٢ -١٣٠٠هـ/ ١٨٠٧ -١٨٨٣م) مع رجال الدولة التونسية. ويعني ذلك أن وثائق "عين زبيدة" التي تشكل موضوعنا هنا، جزء من تلك المراسلات، وتتمثل في: رسالة لها ست (٦) نسخ، وإعلان (أو منشور) له إحدى عشر (١١) نسخة، وأخيرًا خمسة (٥) أظرُف مختلفة أرسلت فيها النسخ التي تمثل الرسالة والإعلان إلى المرسل إليهم، وترقيمها هو ترقيم النسخ التي تمثل الرسالة والإعلان. وفيما يأتي تعريف بكل واحدة من الوثيقتين:

أ - الرسالة(١٠):

كتبت على ورق مقاسه ٣١,٥ سم طولاً، و ١٢,٥سم عرضًا، وتتشكل من أربعة عشر (١٤) سطرًا، ومنها ست (٦) نسخ متشابهة ومتطابقة في عناصر كتابتها، من خط ومسافات بين الأسطر، وبداياتها ونهاياتها، وكذلك أشكال الحروف التي كتبت بها وحجمها أيضًا، وهو ما يوحي أن الرسالة على الرغم من أن الخط الذي كتبت به خط يدوي، فإن نَسْخها لم يتم يدويًا، وإنما بواسطة آلة للطباعة تعمل بطريقة الطبع

(١٠) راجع صورًا لنُسخها المتعددة في الملحق.

الحجري التي كانت تستخدم في تصوير النصوص آنذاك[١١]. وقد وُجهت تلك الرسالة إلى عدد من العلماء والمسؤولين في تونس، وهم ست (٦) شخصيات، وعددها مطابق لعدد النسخ تمامًا. وهذه الرسالة التي أرسلت إلى العلماء والمسؤولين في تونس، هي - كما يبدو - مماثلة لرسائل أخرى كثيرة أرسلتها اللجنة إلى شخصيات أخرى في مناطق متعددة من العالم الإسلامي، في المشرق والمغرب، من أجل إخبارهم بمشروع التعمير وحثهم على جمع التبرعات المالية له من المسلمين. وهو ما أشار إليه عبدالله بن محمد صالح الزواوي الذي كان معاصرًا لذلك الحدث، وسجل وقائعه في مؤلفه حول عين زبيدة، فقال: "وكتبوا [(أي أعضاء اللجنة)] إلى جميع الجهات الإسلامية، خصوصًا مصر والأقطار الهندية، واهتموا بهذا الأمر كل الاهتمام وقاموا به أحسن قيام"[١٢].

(١١) الطباعة الحجرية، وتسمى في اللغات الأوروبية (ليتوغرافيا lithographie - lithography)، وهي طريقة قديمة لطباعة النصوص، اخترعت في ألمانيا عام ١٧٩٦م، وتتم بكتابة النص المراد طبعه بخط يدوي على ورق نقال وبطريقة معكوسة وبواسطة قلم معدني يشبه قلم الرصاص، وبعد ذلك ينقل النص بواسطة حبر خاص (يصنع من الشمع والصابون والشحم الحيواني ومحاليل نباتية، وباستخدام الحك الخفيف) على لوح حجري مصنوع من الأردواز، وله قدرة على الامتصاص. وبعد ذلك ينقل اللوح الحجري، الذي يظهر فيه النص المراد طبعه، إلى آلة ضاغطة هي آلة الطباعة ليجري طبع عدد النسخ المراد إخراجها من النص على الورق العادي. (حول تفصيلات الطباعة الحجرية راجع: عبدالرزاق (فوزي)، **تاريخ الطباعة في المغرب**، تعريب: خالد بن الصغير، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٩٠ -٩٩).

(١٢) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥.

وتنقسم الرسالة من حيث الفصول إلى ستة أقسام: أولها الافتتاحية وهي الحمدلة والصلاة على النبي، وكتبت بخط مطابق للخط الذي كتب به متن الرسالة، واحتلت السطر الأول، وهو غير كامل. ثم القسم الثاني، ويمثل اسم المرسل إليه، واحتل السطر الثاني من الرسالة، وهو غير كامل أيضًا، وكتب في جميع النسخ بخط مغاير للخط الذي كتب به المتن. ويتضح من كل النسخ أن مكان المرسل إليه ترك فارغًا، ثم ملئ يدويًا بأسماء الأشخاص الذين تقرر مراسلتهم، كما تُملأ نسخ الدعوات والرسائل الإدارية في العصر الحديث، ولذلك جاء الخط الذي كتب به اسم المرسل إليه في كل نسخة من الرسالة مختلفًا عن الخط الذي كتب به المتن. وأسماء المرسل إليهم كما جاءت مخاطبتهم في النسخ الموجهة إليهم، هي كما يأتي: "الفاضل الأجل السيد محمد بن المازوني"(١٣)، و"الفاضل الأجل السيد الطاهر النيفر قاضي المالكية بتونس المحروسة"(١٤)، و"الفاضل الأجل السيد الشاذلي مفتي المالكية بتونس"(١٥)، و"الفاضل الأجل السيد محمد بيرم قاضي الحنفية بتونس"(١٦)، و"الفاضل الأجل السيد محمد بن الخوجه مفتي الحنفية بتونس المحروسة"(١٧)،

(١٣) **الأرشيف الوطني التونسي** (تونس)، صندوق ٧٨، ملف ٩٢٩، الوثيقة ٤٧. (راجع صورتها في الملحق، رقم١).

(١٤) المصدر نفسه، الوثيقة ٤٨. (راجع صورتها في الملحق، رقم٢).

(١٥) المصدر نفسه، الوثيقة ٥١. (راجع صورتها في الملحق، رقم٣).

(١٦) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٤. (راجع صورتها في الملحق، رقم٤).

(١٧) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٦. (راجع صورتها في الملحق، رقم٥).

و"الفاضل الأجل السيد مصطفى بن إسماعيل"[١٨].

أما القسم الثالث من الرسالة فهو المتن، وكتب بخط مشرقي ديواني، ويتشكل من اثني عشر (١٢) سطرًا، وبه شرح لموضوع الرسالة، ويتعلق بمشروع تعمير العين. ثم القسم الرابع من الرسالة وهو التاريخ، وهو في النسخة الموجهة إلى السيد محمد بن المازوني: ٢١ شعبان ١٢٩٧هـ (٢٩ يوليو ١٨٨٠م)، أما النسخ الخمس الباقية فهو في جميعها: ١ رمضان ١٢٩٧هـ (٦ أغسطس ١٨٨٠م). ثم القسم الخامس من الرسالة وهو اسم المرسل، وهو في جميع النسخ اسم غير كامل؛ لأنه بمنزلة توقيع، وهو: "عبدالقادر". وكتب بخط مغربي يوحي بشكل واضح أنه خط صاحب الاسم نفسه. وأخيرًا القسم السادس ويمثله ختم المرسِل، وهو ذو شكل دائري يحمل اسم المرسِل كاملاً، ويتمثل في اسمه الشخصي ونسبه الأبوي، وذلك كما يأتي: "عبدالقادر بن محيي الدين". وهذه العبارة الواردة في الختم توضح أن اسم "عبدالقادر"، الوارد في القسم الخامس من الرسالة، الذي كتب بخط مغربي، إنما هو اسم الأمير عبدالقادر الجزائري (١٢٢٢ -١٣٠٠هـ/ ١٨٠٧ -١٨٨٣م) الذي كان مقيمًا آنذاك في مدينة دمشق، وهو صاحب الرسالة (أي المرسِل).

(١٨) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٧. وكتبت فيها عبارة بعد الاسم، ولكنها غير واضحة. (راجع صورتها في الملحق، رقم٦).

ب - الإعلان (المنشور)[١٩]:

كتب على ورق مقاسه يساوي مقاس الورق الذي كتبت عليه الرسالة، وهو يتشكل من عشرين (٢٠) سطرًا، ومنه في الأرشيف إحدى عشر (١١) نسخة، أرقامها هي: (٤٦، و٤٩، و٥٠، و٥٢، و٥٣، و٥٥، و٥٨، و٥٩، و٦٠، و٦٠ مكرر، و٦١). وكُتبت النسخ جميعها بالخط نفسه الذي كتبت به الرسالة، وهو خط مشرقي (ديواني). وتبدو نسخ الإعلان متطابقة فيما بينها في كل عناصر كتابتها، من خط ومسافات بين الأسطر، وبداياتها ونهاياتها، وكذلك أشكال الحروف وحجمها أيضًا. ويوحي ذلك أن الإعلان - هو مثل الرسالة - لم يُنسخ يدويًا، وإنما نُسخ بواسطة آلة للطباعة تعمل بطريقة الطبع الحجرية. والنُّسخ الموجودة بين أيدينا من الإعلان هي (مثل نُسخ الرسالة أيضًا)، تبدو أنها مماثلة لنسخ أخرى غيرها أرسلت برفقة الرسالة إلى شخصيات أخرى في مناطق متعددة من العالم الإسلامي، في المشرق والمغرب، ومنها تونس، وذلك لقراءة الإعلان والتعرف على مضمونه المتعلق بمشروع تعمير عين زبيدة، وتبليغ ذلك للناس في الشوارع والأماكن العامة ودعوتهم إلى الإسهام فيه. وجاء التعبير عن ذلك في الإعلان كما يأتي: "وقد تحرر من أهل المجلس المذكور إعلانات إلى كافة الجهات"، أما في الرسالة فجاء ذكر ذلك كما يأتي: "وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًّا في الشوارع المشهورة"، ولعل طلب نشر الإعلان في الشوارع هو

(١٩) راجع صورة له في الملحق رقم٧.

الذي يفسر لنا زيادة عدد النسخ المرسلة منه على عدد نسخ الرسالة. وبعكس الرسالة، فإن الإعلان لا يحمل اسم المرسل، ولا اسم المرسل إليه، ولا تاريخ الإرسال. وهذا الإعلان مماثل من غير شك للإعلانات التي تحدث عنها عبدالله الزواوي وذكر أن اللجنة نشرتها في الجرائد لحث المسلمين من خلالها على التجاوب مع مشروعها والمبادرة إلى التبرع بالأموال من أجل تنفيذه، فقال: "وكتبوا [(أي أعضاء اللجنة)] الكتابات المشوقة لهذا العمل الخيري العظيم النفع، فأعلنوا ذلك في الجرائد بجملة من اللغات"(٢٠). ومن خصائص هذا الإعلان المقدّم في هذا العمل، أنه يحمل في فقرته الأخيرة اسم الأمير عبدالقادر الذي طُلب من المتبرعين أن يرسلوا أموالهم إليه، ليرسلها هو إلى اللجنة المكلفة بالتعمير في مكة المكرمة. ويُستخلص من ذلك أنه إعلان حُرر باسم الأمير عبدالقادر، كما أن هناك إعلانات أخرى غيره حررت باسم شخصيات أخرى مثله في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، كلفوا من جانب اللجنة، بما كلف به الأمير عبدالقادر.

أما اللغة التي كُتب بها الإعلان فهي عربية بها مسحة من اللغة التركية العثمانية المستخدمة آنذاك، ويظهر ذلك من كتابة التاء المفتوحة في آخر بعض الكلمات مع أن كتابتها الصحيحة في اللغة العربية هي بتاء مربوطة، ولكن تلك الكلمات عندما دخلت اللغة التركية فإنها صارت تكتب بتاء

(٢٠) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥.

مفتوحة، وبذلك الشكل كُتبت في الرسالة. ومن ذلك كلمة حيات (عوض حياة)، ومداركت (عوض مداركة)، وصيانت (عوض صيانة)، وغايت (عوض غاية)، وغيرها. وهذا الأسلوب الذي وجد في الإعلان خلَت منه الرسالة. وذلك يدل على أن كاتب الوثيقتين لم يكن واحدًا، بل لكل وثيقة منهما كاتب مستقل.

ج - الأظرف[٢١]:

هي أظرف بيضاء اللون، ومقاساتها: ١٧,٥سم طولا، و١١,٥ سم عرضًا. وهي التي أُرسلت فيها نسخ الرسالة والإعلان (المنشور) إلى المرسل إليهم كما تثبت ذلك أسماؤهم المكتوبة بخط اليد على الأظرف، وعددها خمسة فقط[٢٢]، والأسماء التي تحملها هي: "حضرة سني الهمم الشيخ محمد بن المازوني"، و"جناب العالم الفاضل السيد الطاهر النيفر قاضي المالكية"، و"جناب العالم الفاضل السيد الشاذلي مفتي المالكية"، و"العالم الفاضل السيد محمد بيرم قاضي الحنفية"، و"جناب العالم الفاضل السيد محمد بن الخوجه مفتي الحنفية"[٢٣].

وكتب على كل ظرف علاوة على اسم المرسل إليه، اسم المدينة التي يقيم فيها. فمقر إقامة الأول منهم، وهو الشيخ محمد بن المازوني، بمدينة الكاف[٢٤]، أما المرسل إليهم

(٢١) راجع صورها في الملحق، رقم٨.

(٢٢) ينقص ظرف واحد، هو المتعلق بالوزير مصطفى بن إسماعيل.

(٢٣) راجع صور الأظرف الخمسة في الملحق، رقم٨.

(٢٤) مدينة الكاف: تقع في الشمال الغربي من تونس، على الحدود مع الجزائر.

الأربعة الباقون فمقر إقامتهم بمدينة "تونس". وقد كتب اسم واحد من أسماء المرسل إليهم الخمسة، وهو الشيخ محمد بن المازوني، بخط مشرقي ديواني، وكتبت أسماء المرسل إليهم الأربعة الباقين بخط مغربي مثل اسم المرسل الذي ورد في نهاية الرسالة. وذلك الخط إما أن يكون بقلم الأمير عبدالقادر نفسه، أو بقلم كاتبه الذي كان - كما يبدو - من أصل جزائري. والأظرف الخمسة غير مرقمة، وأرقامها هي أرقام الرسائل التي أرسلت فيها، وقد أُلحقت بهذا العمل صور لها[٢٥]. مع ملاحظة أن الظرف المتعلق بالمرسل إليه السادس، وهو السيد مصطفى بن إسماعيل، يعد مفقودًا.

ثانيًا - نص الوثائق:

أ - نص الرسالة[٢٦]:

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده

حضرة الفاضل الأجل [.....][٢٧] وفّقه الله لفعل الخير وأعانه عليه آمين/

---

(٢٥) راجع صورها في الملحق رقم٨.

(٢٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، حيث توجد ست (٦) نسخ من الرسالة، أرقامها هي: ٤٧، ٤٨،٥١، ٥٤، ٥٦، ٥٧. (راجع صورها في الملحقات: ١ -٦). والعلامة (/) الواردة في النص تشير إلى الفصل بين الأسطر وفق ما هي عليه في الأصل.

(٢٧) [...]: كتب هنا في كل نسخة من النسخ الستّ (٦) من الرسالة، اسم المرسل إليه، وبخط مغاير للخط الذي كتب به متن الرسالة. (راجع صور تلك النسخ في الملحقات ١ -٦).

غب[٢٨] إهداء التحية الوفية بالمقام، المقْرونة بمزيد المحبة والاحترام، فالمبدَى من المعلوم لدى العموم أن من كرام الشيم وشيم الكرام/ اغتنام فعل الخيرات في كافة الأماكن والأوقات، خصوصًا في البيت الحرام، إذ الصدقة فيه بمائة ألف[٢٩]، وحُسن موقع الإحسان/ فيه غني عن الوصف، وهو محط رحال حجيج المسلمين ومهبط رحمة الله للعالمين[٣٠]. وقد تألف[ت] هنالك جمعية من أساطين/ علماء مكة المكرمة وشرفائها، وفضلاء الهند وتجارها وعظمائها، تحت رياسة مفتيها حضرة الفاضل الشيخ عبدالرحمن سراج أفندي/، قاصدة تعمير ماء مكة المشرفة، الشهير بعين زُبيدة. ولعمري إنه أفضل سعي وأعم مشروع للمسلمين نفعًا، وأعظم قُربة عند الله/ وثوابًا، وأحسن عملاً واكتسابًا. وهي الآن صارِفة كنوز الهمة للقيام بهذه الخيرية المهمة، شَكَر اللهُ

(٢٨) غب: تنطق بكسر الغين (غِبٌّ)، فيقال غِبُّ الأمر، بمعنى عاقبته، وبعده. (ابن منظور، المصدر السابق، ج٤، ص٣٢٠٣، مادة غبب). وعبارة "غِبّ إهداء التحية" الواردة في الرسالة هنا، تعني: بعد إهداء التحية.

(٢٩) ذلك بناء على الحديث الشريف الذي رواه ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "من حج من مكة ماشيًا حتى يرجع إلى مكة، كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة، كل حسنة مثل حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم، قال: لكل حسنة مائة ألف حسنة". (النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج٢، الحديث رقم ١٧٣٥، ص٢٢).

(٣٠) رحمة الله للعالمين: يقصد بها الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، وهو الإسلام.

سعيها، وأتم بالحسنى/ رأيها. وقد حضر إلينا كتاب من جانب الجمعية المومَى إليها يتضمن التشويق والحث لنا ولكافة المسلمين على المبادرة/ لهذه الغنيمة الجسيمة. فاعتقادًا بأنكم تحبون اقتناص مثل هذا الخير العميم والثواب العظيم، ورغبة بأن تُشوِّقوا أهل البر/ والإحسان في كل مكان، وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًّا[٣١]، في الشوارع المشهورة، مع المسارعة للمساعدة على هذه/ المساعي المشكورة، والاعتنا[ء] بتقديم ما يتحصل [من أموال] لطرفنا لأجل أن يُرسَل مع ما يتحصل بهذا الطرف[٣٢] وغيره، إلى الجمعية/ المومَى إليها. ولأجل بيان الكيفية، تحررت هذه الشقة الودادية إليكم. وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم وعلى كافة/ المسلمين. في ٢١ شعبان سنة ٩٧[١٢][٣٣]. عبدالقادر[٣٤].

(٣١) لفًّا: بمعنى مُرفَقةً، أو مُلحَقةً.

(٣٢) هذا الطرف: يقصد به بلاد الشام بوجه عام، ودمشق بوجه خاص؛ لأن بها كان يقيم الأمير عبدالقادر.

(٣٣) التاريخ هنا كتب بخط مغاير للخط الذي كتب به متن الرسالة، وهو شبيه بالخط الذي كتب به اسم المرسل في مقدمة الرسالة. (راجع صور الرسائل في الملحقات ١ -٦). ويوافق: ٢٩ يوليو ١٨٨٠م.

(٣٤) عبدالقادر: كتب بخط مغاير للخط الذي كتب به متن الرسالة، وهو خط مغربي، وهو من غير شك خط صاحب الاسم: الأمير عبدالقادر الجزائري. ووضع أسفل الاسم ختمه الشخصي، ويحمل العبارة الآتية: عبدالقادر بن محيي الدين. (راجع صور الرسائل في الملحقات ١ -٦).

ب - نص الإعلان (المنشور)[٣٥]:

إن أجل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأفضل ما يرغب في تحصيله الراغبون، إجراء الخيرات التي يعم نفعها الخاص والعام، وأعظمه وأشمله وأعمه الماء/ الذي به حيات[٣٦] كل شيء[٣٧]، أما بعد: فإن هذا العين[٣٨] التي أجريت في الرحاب المكّية في القرن الثاني من الهجرة النبوية[٣٩] على صاحبها/ أفضل الصلاة والتحية، قد اعترا[٤٠] مجراها الخراب والانهدام [بـ]سبب تقادم الدهور والأعصار[٤١]، وتوالي السيول والأمطار، وهي وإن كانت تعميراتها/ الضرورية جارية في كل سنة على قسم منها يصرف ما يساعده[٤٢] مائتان ألف[٤٣] قرش المخصصة [للعين] من

(٣٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، وبه توجد إحدى عشر (١١) نسخة منه، أرقامها هي: ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٠ مكرر، ٦١. (راجع صورة لإحدى تلك النسخ في الملحق ٧). والعلامة (/) الواردة في النص تشير إلى الفصل بين الأسطر وفق ما هي عليه في الأصل.

(٣٦) حيات: (كذا) في الأصل، وصوابها: حياة.

(٣٧) مقتبس من قوله تعالى: "﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

(٣٨) هذا العين: (كذا) في الأصل، وصوابها: هذه العين، وخصوصًا أن الكاتب استخدم بعد ذلك لفظة: التي.

(٣٩) القرن الثاني من الهجرة النبوية: يوافقه القرن الثامن الميلادي.

(٤٠) اعترا: (كذا) في الأصل، وصوابها: اعترى.

(٤١) الأعصار: بفتحة فوق الألف وهي جمع، ومفردها عصْر، بمعنى حقبة زمنية.

(٤٢) ما يساعده: ربما يقصد: ما يعادله، أو ما يماثله، أو ما يساويه.

(٤٣) مائتان ألف: (كذا) في الأصل، وصوابها: مائتا ألف.

الخزينة الحجازية/ [التابعة] للدولة العلية أدامها رب البرية. لكن الماء الجاري في دُبُولها[٤٤] من مَشْرَعَتِها[٤٥] غير كافي[٤٦] لسكان مكة المكرمة وحجاج البيت المعظم. فإن مَشْرعَتَها/ المسما[ة] بالأمية[٤٧] قد عمها الخراب من مدة سنين كثيرة، وطمّ عليها الحصا والتراب، فالماء الجاري منها لا يخرج إلا من خلل[٤٨]/ التراب حتى ضاع معظم ماءها[٤٩] في السهول والقفار. فاتفق بعض من أهل الخير على مداركت[٥٠] هذا الأمر العظيم بأن يجتهدو[ا] في تعمير/

(٤٤) دُبُولها: أي دُبول العين، والدُّبول: مفردها (دَبْل)، وهو مجرى الماء، أو الجدول، أو القناة. وكل شيء أصلحته فقد دبلته... ومنه سميت الجداول الدُّبول لأنها تدبل أي تنقى وتصلح. (ابن منظور، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٢٤، مادة: د ب ل).

(٤٥) مَشْرَعَتها: أي مشْرَعة العين. والمَشْرَعَة: هي مورد الماء. وهي مشتقة من فعل (شَرَع)، بمعنى تناول الماء بفيه، أي شرب. (ابن منظور، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٣٨، فعل: شَرَع).

(٤٦) غير كافي: (كذا) في الأصل، وصوابها: غير كاف.

(٤٧) بالأمية: في الأصل بالامية (بهمزة وصل). ويقصد بعبارة "المسماة بالأمية": التي يطلق عليها اسم الأمية. والأمية هي منبع (أو مشرب) عين زبيدة، وهي في وادي نعمان، أكبر أودية مكة المكرمة، وهو في شمالها الشرقي. وفي ذلك يقول محمد صالح الزواوي (المصدر السابق، ص٤): "عين حنين التي هي العين الأصلية لمكة المكرمة، وفي التقدم إلى وادي نعمان الذي يحصل به زيادة الماء؛ لأن جميع ذلك الوادي هو منابع للماء، وفيه الخرزات المنهدمة التي تعد بالمئات، وكلما تقدم العمل يزيد الماء إلى أن يصل العمل إلى أمية العين" (أي إلى منبع العين، أو إلى مشربها). ووصفه الزركلي (المصدر السابق، ص٥٤)، فقال: "وتوسطنا وادي نعمان، فإذا بئر يقولون إنها مبدأ عين زبيدة".

(٤٨) خلل: (كذا) في الأصل، وصوابها: خِلال.

(٤٩) معظم ماءها: (كذا) في الأصل، وصوابها: معظم مائها.

(٥٠) مداركت: (كذا) في الأصل، وصوابها: مداركة.

العين في أقرب وقت وزمان لشدة ما يحصل على أهل مكة المشرفة والحجاج الواردين، من قلت[٥١] الماء، خصوصًا الفقراء. ولم يزل في كل سنة يزيد خراب/ العين، وتزيد عمارة[٥٢] مكة المشرفة بصيانت[٥٣] الدولة العلية أدامها رب البرية، فتوجه الطلب على أهل الثروة من المسلمين مَن وفّقهم الله/ إلى هذا الثواب العظيم الذي يبقا[٥٤] جاريًا في الحياتي[٥٥] وبعد الممات. وقد ترتّب مجلس مخصوص من أهل الديانة والأمانة، جملتهم/ أربعون نفرًا، من الأشراف، والسادة، وعلماء مكة المشرفة، وعلماء الهند، ومن التجار، وغيرهم من كافة الجهات، وصار الشروع بحمد/ الله وقوّته في التعمير، وكلاّ مجتهد[٥٦] بما يصلح وينفع في العاجل وفي الآجل لله ولرسوله. وقد تقرر أن [يكون] رئيس هذا المجلس: الفاضل/ الجليل مولانا الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي السادة الأحناف أطال الله بقا[ء]ه، ووفّقه لما يحبه ويرضاه، ورئيس على إجراء/ التعميرات والمصاريف والمشتروات[٥٧] الأجلّ الحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني شريك زكريا محمد كميني من تجار

(٥١) قِلت: (كذا) في الأصل، وصوابها: قِلّة.

(٥٢) عمارة: بمعنى اتساع العمران وزيادة السكان.

(٥٣) بصيانت: (كذا) في الأصل، وصوابها: بصيانة.

(٥٤) يبقا: (كذا) في الأصل، وصوابها: يبقى.

(٥٥) في الحياتي: (كذا) في الأصل، وصوابها: في الحياة.

(٥٦) وكلاً مجتهد: (كذا) في الأصل، وصوابها إما: "وكل مجتهدا" (بحكم العطف على فعل صار)، أو: "وكل مجتهد" (بحكم أنها جملة منفصلة عن سابقتها).

(٥٧) المشتروات: (كذا) في الأصل، وصوابها: المشتريات.

كلكته[٥٨]. وكل ما يلزم/ إجرا[ؤ]ه، [يكون] بمشورة أهل المجلس، وكل ما يُصرَف [يكون] بالاحتياط وغايت[٥٩] الحزم. وأيضًا في عزمهم إحداث أماكن في المواضع المنقطع عنها وصول/ الماء في مكة المشرفة لأجل تسهيل أخذ الماء من القرب[٦٠] لكل أحد، خصوصًا الفقرا[ء] الذي[ن] أماكنهم بعيدة. وقد تحرر[ت] من أهل المجلس/ المذكور إعلانات إلى كافة الجهات، نسئل[٦١] الله سبحانه وتعالى التوفيق والإعانة لكل من له نية صالحة. فكل من يرغب [في] تسليم شيء/ إعانةً لتعمير عين زبيدة يكون إرساله وتسليمه إلى جناب الفاضل الشيخ عبدالقادر الحسيني ابن محيي الدين لأجل إرساله إلى مكة/ المشرفة، [ليُسلّم] للحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني، لكي يوضع في صندوق إعانة تعمير عين زُبيدة. والله يجزي المتصدقين، وما تنفقو[ا] من شيء فإن/ الله به عليم[٦٢]، والله لا يضيع أجر المحسنين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(٥٨) كلكته: غير واضحة في الأصل، ويبدو أنها كتبت: (كلكة)، وهي مدينة في الهند. ولكن إما أن تكون مدينة كالكوتا Calcutta التي في غربي الهند على مقربة من الحدود مع بنغلاديش، وهي عاصمة إقليم البنغال، أو تكون مدينة كاليكوت Calicut التي على ساحل مليبار في القسم الجنوبي من الهند وتطل على المحيط الهندي من ناحية الغرب.

(٥٩) غايت: (كذا) في الأصل، وصوابها: غاية.

(٦٠) القرب: تُقرأ هنا بضم القاف وسكون الراء (القُرْب)، وهذا ما يتماشى والسياق العام للجملة، وليس بكسر القاف وفتح الراء (القِرَب)، ومفردها (قِرْبة)، وهي الوعاء الذي يصنع من جلد الحيوان ويستخدم لنقل الماء وتخزينه.

(٦١) نسئل: (كذا) في الأصل، وصوابها: نسأل.

(٦٢) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ثالثًا - دراسة تحليلية لموضوع الوثائق:

تكتسب الوثائق موضوع الدراسة هنا أهمية علمية كبيرة، نظرًا إلى المعلومات التاريخية المهمة التي تُزودنا بها حول الحالة التي صارت عليها "عين زبيدة" في أواخر القرن ١٣هـ (١٩م)، وعملية التعمير التي أجريت بها آنذاك. وهي في ذلك تتكامل بصورة كبيرة مع المؤلَّف الذي حرّره حول العين ذاتها الشيخ عبدالله بن محمد صالح الزواوي (١٢٦٦ -١٣٤٣هـ/ ١٨٥٠ - ١٩٢٤م) الذي كان معاصرًا للفترة التي تعود إليها الوثائق، وتحدث فيه (أي في المؤلَّف) عن تاريخ العين، وتدهورها في المراحل التاريخية المتعاقبة، وعمليات التعمير المختلفة التي أجريت لها، ومنها العملية التي تتعلق بها الوثائق موضوع البحث هنا[٦٣]. ويظهر ذلك التكامل بين الوثائق ومؤلف الشيخ عبدالله الزواوي في جوانب متعددة، فهناك معلومات متطابقة بينهما، ذكرها أحدهما وأكدها الآخر، وأخرى ناقصة فأكملها، وثالثة غامضة فوضحها. وهو ما يظهر في الفقرات المختلفة التي تضمنتها الوثائق، وفيها جاء توضيح مشروع التعمير الذي قررت اللجنة القيام به في العين بمختلف تفصيلاته، حتى يطلع عليه المسلمون وينجذبوا إلى الإسهام فيه بأموالهم. وعبر الشيخ عبدالله الزواوي عن ذلك بقوله: "وكتبوا الكتابات المشوقة لهذا العمل الخيري العظيم النفع، وأعلنوا ذلك في الجرائد بجملة من اللغات"[٦٤]. وفيما يأتي أهم الموضوعات التي تناولتها الوثائق:

(٦٣) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٣ -٢٧.
(٦٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

١ - التعريف بالعين:

إن التعريف بالعين في الوثيقتين (الرسالة والإعلان) مع أنه جاء مختصرًا، جرى بأسلوب واضح يفيد أن المنشأة التي يتعلق بها مشروع التعمير هي "عين زُبيدة" وليست منشأة أخرى غيرها. وقام ذلك التعريف في الوثيقتين معًا على خمسة عناصر هي نفسها التي نجدها في بطاقة التعريف المتعلقة بالأشخاص كما تحددها قوانين الحالة المدنية، فأولها اسم العين، وثانيها نسبتها، وثالثها اسم شهرتها، ورابعها مكان وجودها، وخامسها تاريخ إنشائها(٦٥).

فبخصوص العنصر الأول المتمثل في اسم العين، فإن الكاتب استخدم في الوثيقتين لفظتين، إحداهما هي "ماء" التي استخدمت في الرسالة، والثانية لفظة "العين" التي استخدمت في الإعلان. وكما يلاحظ فإن اللفظة الأولى لها دلالة عامة، إذ تطلق على العين، كما تطلق على البئر، وحتى على السيل، وعلى الوادي، والبِرْكة، وكل ما يحتوي على عنصر الماء. أما اللفظة الثانية (وهي العين) فدلالتها خاصة، إذ تطلق على نوع معين من المنشآت التي يتزود الناس منها بالماء، وهي المنشآت التي لها قنوات تجري فيها المياه، وحنفيات يسقي منها الناس. ولكن اللفظتين مع أنهما مختلفتان في الشكل فإنهما متحدتان في الدلالة، فيمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى. وإذا أتينا إلى عبدالله الزواوي في هذا الموضوع فإن كان قد استخدم لفظة الماء للدلالة على

(٦٥) تقابل تلك العناصر الخمسة في بطاقة التعريف الشخصية: اسم الشخص، واسم والده، ولقبه (أو اسم عائلته)، ومكان ولادته، وتاريخ الولادة.

العين، فإن ذلك لم يكن إلا في حالات نادرة كما لوحظ عند بدء حديثه عن تاريخ الاهتمام بمسألة المياه في مكة المكرمة، فقال: "إن أول من عثرتُ عليه ممن اعتنى بأمر مياه مكة المكرمة هو معاوية، وكان أهل مكة قبل ذلك يشربون من الآبار الموجودة بها وحواليها"(٦٦). أما لفظة "العين" فكانت هي الأكثر استخدامًا عنده، وذلك مثل: عين حنين، وعين مكة، وعين زبيدة، وعين عرفات، وعين الزعفرانة(٦٧).

وإذا أتينا إلى العنصر الثاني المتمثل في نسبة العين إلى السيدة زبيدة، فإن كلتا الوثيقتين لم تُستخدم فيهما تلك النسبة، وإنما استخدم فيهما بدلاً منها اسم المكان الذي فيه العين، وهو "مكة المكرمة". ويعني ذلك أن العين نسبت في الوثيقتين إلى مكة المكرمة لا إلى السيدة زبيدة. وهنا يتبين لنا انزياح البعد الرمزي المستمد من العنصر البشري (الإنسان) أمام البعد الديني المستمد من العنصر الجغرافي (المكان). فنقرأ في الرسالة عبارة "ماء مكة المشرفة"(٦٨)، ونقرأ في الإعلان عبارة "العين التي أجريت في الرحاب المكية"(٦٩)، وكأن الكاتب أراد أن يقول هنا: "عين الرحاب المكية". وكان من المفروض أن يقال في الحالة الأولى "عين زبيدة"، وفي الحالة الثانية "العين التي أجرتها السيدة زبيدة في الرحاب المكية". وإن استخدام الأسلوب الأول في التعريف

(٦٦) الزواوي، المصدر السابق، ص٥.
(٦٧) المصدر نفسه، ص١٢، ١٣، ٢١، ٢٦، ٢٧.
(٦٨) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).
(٦٩) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب)..

بالعين، حيث أُبرز اسم المكان الذي يمثل البعد الديني، وأهمل اسم الشخص المنشئ للعين الذي يمثل البعد الرمزي، له مغزى ثقافي كبير عند المسلمين، وهو غلبة البعد الديني لديهم على غيره من الأبعاد. وكما وجد هذا التعبير في الوثائق، فإنه وجد عند عبدالله الزواوي أيضًا، وظهر ذلك من خلال استخدامه لعبارة "عين مكة"(٧٠).

وبخصوص عنصر التعريف الثالث المتمثل في اسم الشهرة، فإن أهميته كبيرة جدًا في التعريف بصاحب الاسم، سواء كان شخصًا أو منشأةً، حتى إنه قد يطغى على الاسم الأساس الذي يأتي في أول السياق، ويصبح هو الركن الذي يقوم عليه التعريف جميعه. ولذلك عُرف باسم الشهرة؛ لأن صاحب الاسم به يشتهر. ولكن مع ذلك فهو فلا يُعدّ الاسم الأساس في نظام التسمية، وإنما هو اسم مكمل له فقط، ولذلك يأتي بعده في السياق لا قبله. وذلك هو حال اسم الشهرة الذي نُعتت به عين زبيدة في الوثائق موضوع الدراسة هنا. وورد ذلك الاسم بخصوص العين في الرسالة كما ورد في الإعلان أيضًا. فنقرأ في الرسالة: "ماء مكة المشرفة الشهير بعين زبيدة"(٧١). ويتبين لنا في هذا الأسلوب الذي استخدم في التعريف بالعين في الرسالة، بأن اسم "زبيدة" قد انزاح عن مكانه الأصل الذي من المفروض أن يكون في بدء التعريف، وحل محله اسم "مكة المشرفة" ذو البعد الديني، وتحول بذلك الانزياح من اسم رئيس يأتي في أول التسمية، إلى اسم ثانوي

(٧٠) الزواوي، المصدر السابق، ص١٢، ٢٣، ٢٧.

(٧١) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

يـأتي بـعـد الاسـم الـرئـيس. ولـكـن مع ذلك فـإنه حـافظ عـلى أهـميته في توضيح التسمية، وبواسطته أمكننا التأكد نحن اليوم من أن العين المقصودة في الرسالة إنما هي عين زبيدة وليست عينًا أخرى غيرها. ونظرًا إلى المرتبة الثانوية التي أزيح إليها اسم "زبيدة" أمام اسم "مكة المشرفة"، فإنه لم يذكر في الإعلان لما عُـرّفت الـعـين في أول مـرة حيث كـتب: "هـذا العين التي أجريت[٧٢] في الرحاب المكية في القرن الثاني من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية"[٧٣]. ولكن الكاتب بعد أن استخدم ذلك التعريف في الأسطر الأولى من الإعلان، فإننا وجدناه يستخدم بعد ذلك في الأسطر الأخيرة منه، اسم الشهرة بمفرده كأنه هو الاسم الأساس، فكتب "عين زبيدة" مرتين وفي عبارتين متتاليتين، وذلك عندما قال: "فكل من يرغب [في] تسليم شيء إعانة لتعمير عين زبيدة يكون إرساله وتسليمه إلى جناب الفاضل الشيخ عبدالقادر الحسيني ابن محيي الدين لأجل إرساله إلى مكة المشرفة للحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني لكي يوضع في صندوق إعانة تعمير عين زبيدة والله يجزي المتصدقين"[٧٤].

وبخصوص عنصري التعريف الرابع والخامس، وهما مكان وجود العين وتاريخ إنشائها، فإنهما وردا في الإعلان فقط دون الرسالة، وذلك كما يأتي :"العين التي أجريت في الرحاب

(٧٢) هذا العين التي أجريت: (كذا) جاء التعبير في الأصل، وقد شرح ذلك في الهوامش المتعلقة بنص الوثائق في العنصر الثاني، (ب).

(٧٣) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

(٧٤) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (أ).

المكية في القرن الثاني من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية"[٧٥]. وهما عنصران فيهما من المواصفات ما ينطبق على عين زبيدة. أما في الرسالة فإن مكان وجود العين - وهو مكة المكرمة - قد احتل مكان النسبة عوض اسم "زبيدة" كما سبقت الإشارة، وأما تاريخ الإنشاء فلم يُذكر.

وتوافرت عناصر التعريف الخمسة المذكورة على أبعاد ثقافية مهمة: بُعد وظيفي، وآخر ديني، وثالث رمزي، ورابع تاريخي. فالبعد الوظيفي نجده في "العين" التي هي مصدر الماء الذي تقوم عليه الحياة، والبعد الرمزي نجده في اسم "زبيدة"، وهو اسم المرأة التي يرجع إليها فضل إنشاء العين وبقيت بعد ذلك تنسب إليها واشتهرت باسمها، والبعد الديني نجده في"مكة المكرمة" وهي المكان المقدس حيث توجد الكعبة المشرفة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم كل يوم وفي قراءتهم القرآن الكريم ودعاء الله عز وجل، والبعد التاريخي نجده في عبارة "القرن الثاني من الهجرة"، وهو التاريخ الذي تعود إليه العين، ويبعد من تاريخ الوثيقتين بأحد عشر قرنًا.

٢ - حالة العين:

إن الوضع الذي صارت عليه عين زبيدة في مكة المكرمة في التاريخ الذي تعود إليه الوثائق - وهو عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) - قد صوّره لنا الإعلان لا الرسالة. وتضمن ذلك

(٧٥) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

الوصف ثلاثة عناصر تدل كلها على أن العين بلغت مستوى متدنيًا من التدهور بحيث صارت لا تفي بوظيفتها تجاه سكان مكة المكرمة والحجيج الذين يأتون إليها في كل سنة، من جانب تزويدهم بالماء الذي يحتاجون إليه في حياتهم اليومية. وتلك العناصر الثلاثة هي كما يأتي:

أ - تدهور حالة العين: تمثلت مظاهر تدهور حالة العين حسبما ورد في الإعلان، في خمسة مظاهر: أولها "الخراب والانهدام" اللذين اعتريا مجراها، وثانيها طمي المجرى بالحصى والتراب، وثالثها عدم خروج الماء إلا من خلال التراب، ورابعها ضياع مائها في السهول والقفار، وخامسها عدم كفاية مائها سكان مكة المكرمة وحُجّاجها.

وكما يستخلص من الإعلان فإن مكة المكرمة صارت تعاني أزمةً خانقةً في المياه بسبب تدهور حالة العين من جهة، وزيادة سكان البلدة من جهة أخرى، وصار حصول الناس على الماء صعبًا جدًا، ولا سيما الفقراء من السكان والحجيج الذين لا يقدرون على شرائه من أناس يحضرونه من أماكن بعيدة ويبيعونه بأثمان باهظة(٧٦). وعبّر الإعلان عن ذلك الوضع الذي آلت إليه العين بالقول: "فإن هذه العين التي أجريت في الرحاب المكية في القرن الثاني من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، قد اعترى مجراها الخراب

(٧٦) تحدث الزواوي (المصدر السابق، ص٥، ٩، ١٢ -١٣، ١٤) عن كثير من الوقائع المتعلقة ببيع الماء بأسعار باهظة في مكة المكرمة إبان الأزمات المائية التي عرفتها المدينة عبر تاريخها.

والانهدام بسبب تقادم الدهور والأعصار، وتوالي السيول والأمطار[٧٧]، وهي وإن كانت تعميراتها الضرورية جارية في كل سنة [...] لكن الماء الجاري في دُبولها[٧٨] من مَشْرَعتها[٧٩] غير كاف لسكان مكة المكرمة وحجاج البيت المعظم. فإن مَشْرعَتها المسماة بالأمية[٨٠] قد عمها الخراب من مدة سنين كثيرة، وطمّ عليها الحصا والتراب، فالماء الجاري منها لا يخرج إلا من خلل[٨١] التراب حتى ضاع معظم مائها في السهول والقفار. فاتفق بعض من أهل الخير على مداركة هذا الأمر العظيم [...] في أقرب وقت وزمان لشدة ما يحصل على أهل مكة والحجاج الواردين، من قلة الماء، خصوصًا الفقراء. ولم يزل في كل سنة يزيد خراب العين، وتزيد عمارة[٨٢] مكة المشرفة"[٨٣].

ب - سبب تدهور حالة العين: مما لا شك فيه أن تدهور حالة العين لا يعود إلى سبب واحد، بل إلى أسباب مختلفة، بعضها طبيعية وأخرى بشرية، ولكن الإعلان لم يتطرق إلى تلك الأسباب مفصلة، وإنما أجملها في عبارة واحدة هي:

(٧٧) حول أثر السيول في انهدام العيون بمكة المكرمة راجع: الزواوي، المصدر السابق، ص٢، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣.

(٧٨) دُبولها: سبق التعليق عليه في العنصر الثاني، ب.

(٧٩) مشرعتها: سبق التعليق عليه في العنصر الثاني، ب.

(٨٠) بالأمية: سبق التعليق عليها في العنصر الثاني، ب.

(٨١) خلل: (كذا) في الأصل، وصوابها: خلال.

(٨٢) عمارة: بمعنى العمران، وهو اتساع البناء وزيادة السكان.

(٨٣) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

"تقادم الدهور والأعصار، وتوالي السيول والأمطار"(٨٤). ويبدو أن الكاتب أراد أن يقول إن الأسباب التي كانت وراء تدهور حالة العين هي أسباب مختلفة حدثت عبر الدُّهور والأعصار الطويلة التي مرت عليها منذ إنشائها في القرن الثاني للهجرة، وكان واحد منها السيول والأمطار التي توالت عليها عبر تلك الأزمنة الطويلة. وعند الرجوع إلى الوقائع التي سجّلها عبدالله الزواوي في رسالته حول العين منذ إنشائها، فإننا نجد أن السيول التي تحدث في الأودية عند سقوط الأمطار، كانت فعلاً أكثرها خطرًا على العين، إذ تؤدي إلى هدم قنوات العين وطمي منابعها، وهو ما ينتج عنه توقف جريان مياهها وعدم وصولها من منابعها البعيدة إلى مكة(٨٥). وكان أحد تلك السيول التي ذكرها عبدالله الزواوي، ما حدث في عام ١٢٧٨هـ (١٨٦١ -١٨٦٢م)، ووصفه بأنه "سيل عظيم"(٨٦). وإلى جانب العامل الطبيعي المتمثل في السيول، فإن عبدالله الزواوي تحدث عن العوامل البشرية أيضًا، وكان منها الفتن(٨٧).

ج - جهود السلطة العثمانية في حماية العين: يذكر الإعلان بهذا الخصوص أن العين كانت تجري عليها الإصلاحات الضرورية في كل سنة. ويُقدم لنا الإعلان ولكن

(٨٤) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).
(٨٥) الزواوي، المصدر السابق، ٢، ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣.
(٨٦) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٨٧) المصدر نفسه، ص٢٣.

بأسلوب غامض، المبلغ المالي الذي كان مخصصًا لتلك الإصلاحات من الخزينة الحجازية، وقدره مائتا ألف قرش. فيقول الإعلان: "وإن كانت تعميراتها الضرورية جاريةً في كل سنة على قسم منها يصرف ما يساعده (كذا) مايتان ألف (كذا) قرش المخصصة [للعين] من الخزينة الحجازية [التابعة] للدولة العلية أدامها رب البرية"(٨٨).

وقد أكّد عبدالله الزواوي في رسالته حول العين وجود مبلغ من المال كانت الدولة العثمانية تخصصه من خزينتها لعين زبيدة، وقال إن ذلك المبلغ أخبر به أميرُ مكة الشريف حسين باشا في عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) لجنة العين عندما توجهت إليه وهو في دار الإمارة، وأعلمته برغبتها في جمع الأموال من المسلمين في مختلف الأقطار لتنفيذ مشروع التعمير الذي قررت القيام به في عين زبيدة. ولكن الوالي العثماني لم يذكر للجنة ذلك المبلغ الذي ورد في الإعلان، وهو (مائتا ألف قرش)، وإنما ذكر ـ حسب رواية عبدالله الزواوي ـ مبلغًا آخر هو "ألف جنيه عثماني"(٨٩). ومن ثم فلا نعرف هل كان المبلغان مختلفين في القيمة ونوع العملة معًا، أو هما متساويان في القيمة ومختلفان في نوع العملة فقط. والجواب عن ذلك يحتاج إلى البحث في العملتين المذكورتين، ومعرفة قيمة كل منهما نسبةً إلى الأخرى(٩٠).

(٨٨) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

(٨٩) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٤.

(٩٠) يبدو أن المقصود بالجنيه العثماني هنا هو الليرة الذهبية التي أصدرتها الدولة العثمانية في عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)، وكانت تساوي =

٣ - لجنة تعمير[٩١] العين:

إن "اللجنة" - كما أسماها عبدالله الزواوي[٩٢] - المكلفة بتعمير العين قد تحدثت عنها الرسالة كما تحدث عنها الإعلان. فأطلقت عليها الرسالة اسم "جمعية"، وأطلق عليها الإعلان اسم "مجلس". ووصفت الرسالة أعضاءها فذكرت أنهم "من أساطين علماء مكة المكرمة وشرفائها وفضلاء الهند وتُجارها وعظمائها"[٩٣]. أما الإعلان فلم يكتف بوصفهم وإنما ذكر إلى جانب ذلك عددهم أيضًا، وهو ما لم يذكره عبدالله الزواوي[٩٤]. فجاء في الإعلان أنهم "من أهل الديانة والأمانة، جملتهم أربعون نفرًا، من الأشراف والسادة وعلماء

= مائة (١٠٠) قرش فضي. وإذا صح هذا الاحتمال فإن المبلغين المذكورين يكونان مختلفين في القيمة، فالمبلغ الذي ذُكر منهما في الإعلان يساوي ضعف المبلغ الذي ذُكر في رسالة الشيخ الزواوي. (راجع أنواع العملة العثمانية وقيمتها في: باموك (شوكت)، **التاريخ المالي للدولة العثمانية**، تعريب: عبداللطيف الحارس، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٥م، ص٣٤٦، ٣٧٦).

(٩١) تعمير: سبق التعليق عليها.

(٩٢) المصدر السابق، ص٢٥.

(٩٣) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

(٩٤) المصدر السابق، ص٢٤ -٢٦. مع الإشارة بأن عبدالله الزواوي قد تحدث في مقدمة رسالته (ص٣) عن لجنة أمر أمير مكة بتشكيلها لتعمير عين زبيدة، وقال الشيخ الزواوي: إنه هو الذي اختار أعضاءها وكتب أسماءهم في قائمة سلمها للأمير، وبلغ عددهم ثلاثين (٣٠) شخصًا. ولكن تلك اللجنة التي تحدث عنها الشيخ الزواوي ليست هي نفسها التي تتعلق بها وثائق هذا العمل، وإنما هي لجنة أخرى تشكلت بعدها، وكانت في عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م). (راجع حولها: غباشي، **المنشآت المائية** ...، مصدر سابق، ص٣٠٩ -٣١٠).

مكة المشرفة وعلماء الهند ومن التجار وغيرهم من كافة الجهات"[٩٥].

وأما رئيس لجنة التعمير فكان كما ورد في الإعلان: "الفاضل الجليل مولانا الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي السادة الأحناف". وهو الاسم الذي ذكرته الرسالة أيضًا، كما ذكره عبدالله الزواوي كذلك، ووصفه بكونه "رئيسًا فخريًا"، وحدد وظيفته في أن "يسوق المسلمين لهذا العمل الخيري"[٩٦]، ويقصد بذلك دعوتهم إليه وحثهم على الإقبال عليه. وأضاف الإعلان مسؤولاً آخر في تلك اللجنة هو أمين المال، ووظيفته جمع الأموال وتوجيه المصروفات لتوفير مستلزمات التعمير، من شراء للمواد المتعلقة بالبناء، ودفع لأجور العمال. ووصف الإعلان ذلك المسؤول بعبارة: "رئيس إجراء التعميرات والمصاريف والمشتروات"، وهو "الأجل الحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني"، وهو الشخص نفسه الذي ذكره عبدالله الزواوي باسم "الحاج عبدالواحد الشهير بالحاج وحدانة الميمني"[٩٧]، وقال إنه كُلف بوظيفة "أمين الصندوق"[٩٨]. وكان ذلك الشخص من تجار الهند، وكانت تجارته كما يبدو واسعةً جدًا في مكة المكرمة وخارجها، وكانت له بحكم عمله علاقات وطيدة وواسعة مع التجار والهيئات، ويتمتع بثقة كبيرة بين الناس، ذلك زيادة على

(٩٥) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).
(٩٦) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥.
(٩٧) المصدر نفسه، ص٢٤.
(٩٨) المصدر نفسه، ص٢٥.

معرفته بصرف الأموال وطرق جمعها ونقلها وحفظها. ولذلك اختير لعضوية اللجنة، وكلف بأهم وظيفة فيها، وهي أمانة الصندوق. وكان ذلك التاجر الهندي يعمل بالشراكة مع تاجر آخر اسمه زكريا محمد كميني. ويبدو أن عبارة "من تجار كلكُته"(٩٩) التي وردت في الإعلان بعد اسم "زكريا محمد كميني"، ليست صفة لهذا التاجر الأخير فقط، بل للتاجرين معًا، وهو ما يعني أن كليهما كانا من تلك المدينة الهندية(١٠٠).

وكانت تلك اللجنة المكونة من أربعين شخصًا، هي التي عينت للإشراف على عملية التعمير في عين المكان. ولكن المشروع لما كان عملاً يحتاج إلى أموال كثيرة، ويخص المسلمين في مختلف الأقطار لكونه يرتبط بمكة المكرمة التي يتوجهون إليها في صلواتهم كل يوم، وفي قراءتهم القرآن الكريم، فإن تلك اللجنة عينت لنفسها - كما يفهم من الوثائق هنا - ممثلين لها على مستوى الأقطار الإسلامية لجمع الأموال اللازمة لتنفيذ المشروع، وكان الأمير عبدالقادر بن محيي الدين الجزائري، الذي كان مقيمًا في مدينة دمشق آنذاك، واحدًا منهم. وذلك ما أشار إليه الإعلان عندما طلب من المتبرعين بأموالهم أن يرسلوها إليه، لكي يقوم هو بعد

(٩٩) كلكته: مدينة بالهند، وسبق التعليق عليها في الهامش رقم (٥٨).

(١٠٠) العبارة كاملة هي كما يأتي: "ورئيس على إجراء التعميرات والمصاريف والمشتروات الأجلّ الحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني شريك زكريا محمد كميني من تجار كلكُته". (الإعلان، راجع نصه في العنصر الثاني، ب).

ذلك بإرسالها إلى أمين المال في مكة المكرّمة ليضعها في صندوق التعمير. وكُتب في الإعلان بخصوص ذلك ما يأتي: "فكل من يرغب [في] تسليم شيء إعانة لتعمير عين زبيدة يكون إرساله إلى جناب الفاضل الشيخ عبدالقادر الحسيني ابن محيي الدين لأجل إرساله إلى مكة المشرفة للحاج عبدالواحد بن يونس اليمني لكي يوضع في صندوق إعانة تعمير عين زبيدة". وفي ضوء ذلك التوجيه من اللجنة كتب الأمير بدوره في الرسالة التي بعث بها إلى الشخصيات العلمية والسياسية الذين كانت له علاقة بهم في تونس يقول لهم: "وقد حضر إلينا كتاب من جانب الجمعية المومَى إليها يتضمن التشويق والحث لنا ولكافة المسلمين على المبادرة لهذه الغنيمة الجسيمة. فاعتقادًا بأنكم تحبون اقتناص مثل هذا الخير العميم والثواب العظيم، ورغبة بأن تُشوِّقوا أهل البر والإحسان في كل مكان، وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًّا[١٠١]، في الشوارع المشهورة، مع المسارعة للمساعدة على هذه المساعي المشكورة، والاعتنا[ء] بتقديم ما يتحصل [من أموال] لطرفنا لأجل أن يُرسَل مع ما يتحصل بهذا الطرف وغيره، إلى الجمعية المومَى إليها"[١٠٢].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو المتعلق بطبيعة ذلك التمثيل الذي أُنيط بالأمير عبدالقادر الجزائري، فهل كان تمثيلاً للجنة في البلدان الإسلامية خارج الحجاز بشكل عام،

(١٠١) لفًّا: بمعنى مُرفقةً، أو مُلحَقةً.

(١٠٢) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

بحكم شخصيته الشهيرة على مستوى العالم الإسلامي، أم كان تمثيلاً محدودًا على مستوى بلاد الشام التي يقيم فيها وبلاد المغرب التي ينحدر منها فحسب؟

وكما يستخلص من الرسالة الموجهة من الأمير إلى علماء تونس ورجال الدولة فيها، فإن الاحتمال الأول هو الأقوى. فيذكر الأمير أن لجنة التعمير في مكة المكرمة أرسلت إليه رسالة طلبت منه فيها حث "كافة المسلمين على المبادرة لهذه الغنيمة". وعبارة "كافة المسلمين" تعني أن اتصالاته لم تقيد بقطر معين من الأقطار الإسلامية، وإنما بجميعها. وحتى الأمير عبدالقادر قد عبر في الرسالة التي بعث بها إلى علماء تونس عن تلك الصفة التمثيلية العامة التي أنيط بها من لجنة التعمير، وذلك عندما طلب منهم أن يرسلوا إليه ما سيتحصل لديهم من أموال، ليجمعها مع ما سيتحصل لديه في الشام وفي غيره، ثم يرسل جميع ذلك إلى لجنة التعمير في مكة المكرمة. فخاطبهم بقوله: "والاعتناء بتقديم ما يتحصل [من أموال] لطرفنا لأجل أن يرسل مع ما يتحصل بهذا الطرف وغيره إلى الجمعية المومى إليها"(١٠٣). وعبارة "هذا الطرف" إنما يقصد بها بلاد الشام، أما لفظة "غيره" فيقصد بها الأقطار الأخرى، وهي غير محددة، ومنها بلاد المغرب.

(١٠٣) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

٤ - مشروع التعمير:

حسبما يتضح من الإعلان فإن مشروع تعمير عين زبيدة كان ينقسم إلى شقين، أحدهما إصلاح الهياكل القديمة للعين وجعلها في حالة جيدة تمكنها من أداء وظيفتها في مد سكان مكة المكرمة بالماء، ويتم ذلك بإصلاح مجاري العين وإزالة الطمي الذي ترسب فوقها على مدار السنين، وجمع مياهها الغائرة في السهول والصحاري، وتوجيهها عبر المجرى الرئيس ليستفيد منها السكان. أما الشق الثاني من التعمير فهو عزم اللجنة على مد قنوات فرعية من المجرى الرئيس للعين نحو مناطق مختلفة من مكة المكرمة حيث تنعدم المياه، لتقريب مصادر التزود بالماء من السكان، وخصوصًا الفقراء منهم الذين لا يملكون المال لشرائه ممن يحضرونه من أماكن بعيدة ويبيعونه بأثمان باهظة. وعبر الإعلان عن ذلك بالقول: "وأيضًا في عزمهم إحداث أماكن في المواضع المنقطع عنها وصول الماء في مكة المشرفة لأجل تسهيل أخذ الماء من القُرَب لكل أحد، خصوصًا الفقراء الذين أماكنهم بعيدة". ولعل ذلك العمل هو الذي تُرجم فيما أسماه عبدالله الزواوي باسم البازانات التي أنشأتها اللجنة في بعض الأحياء بمكة المكرمة، ومنها بازان الشعب، وبازان سوق الليل، وبازان جياد، وغيرها[١٠٤].

(١٠٤) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٦. والبازان في لغة أهل مكة هو الحوض، أو الماجل، أو مجمع الماء (ولزيادة الشرح راجع: أرسلان، المصدر السابق، ص٥١؛ الزواوي، المصدر السابق، ص٩ -١١).

٥ - الدعوة إلى الإسهام في التعمير:

اعتمدت لجنة تعمير عين زبيدة في دعوة المسلمين إلى الإسهام في مشروعها على جملة من الأركان جاء وصفها في كل من الرسالة والإعلان، وهي:

أ - عدّ الإسهام في المشروع من الأعمال الخيرية التي تُعدّ عند المسلمين من "أجلّ ما يتنافس فيه المتنافسون وأفضل ما يرغب في تحصيله الراغبون" (الإعلان)، خصوصًا إذا كان ذلك العمل "في البيت الحرام، إذ الصدقة فيه بمائة ألف" (الرسالة)(١٠٥).

ب - توجيه دعوة الإسهام إلى "كافة المسلمين" (الرسالة)، وبشكل خاص "أهل الثروة" منهم (الإعلان). ولذلك وجهت الرسالة إلى العلماء ورجال الدولة في مختلف البلدان، وكان منها تونس، وأرسل برفقتها الإعلان الذي يشرح مشروع التعمير؛ لنشره "في الشوارع المشهورة" ليقرأه الناس ويطلعوا على مضمونه. وعبّرت الرسالة عن ذلك على لسان الأمير عبدالقادر بالقول: "وقد حضر إلينا كتاب من جانب الجمعية المومَى إليها يتضمن التشويق والحث لنا ولكافة المسلمين على المبادرة لهذه الغنيمة الجسيمة، فاعتقادًا بأنكم تحبون اقتناص مثل هذا الخير العميم والثواب العظيم، ورغبةً بأن تُشوِّقوا أهل البر والإحسان في كل مكان، وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًا، في الشوارع المشهورة، مع المسارعة للمساعدة على هذه المساعي المشكورة"(١٠٦).

(١٠٥) راجع نصها في العنصر الثاني، (أ)، والتعليق على ذلك في الهامش.
(١٠٦) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

ج - عدم تحديد شكل الإسهام، إذ مع أن مشروع التعمير يقوم في أساسه على المال، فإن الدعوة إلى الإسهام فيه لم تتضمن الإشارة إلى ذلك، حتى إن المال لم يرد ذكرُه في الإعلان ولا في الرسالة. ويعني ذلك أن الإسهام ترك مفتوحًا على مختلف الأشكال، ومنها المال. ولذلك استخدم في الإعلان لفظة "شيء"، وجاء التعبير عن ذلك بالقول: "فكل من يرغب [في] تسليم شيء إعانة لتعمير عين زبيدة يكون إرساله وتسليمه إلى جناب الشيخ عبدالقادر الحسيني بن محيي الدين"(١٠٧). أما في الرسالة فقد استخدم اسم الموصول "ما"، وجاء التعبير عن ذلك بالقول: "والاعتناء بتقديم ما يتحصل لطرفنا لأجل أن يرسل مع ما يتحصل بهذا الطرف وغيره إلى الجمعية المومى إليها"(١٠٨).

٦ - تكليف الأمير عبدالقادر الجزائري بجمع الأموال من المتبرعين:

كانت لجنة التعمير تعرف دون شك أن جمع الأموال في البلدان الإسلامية خارج مكة المكرمة هو عملية في درجة عالية من الصعوبة، ولذلك رأت أن تلك المهمة لا يستطيع أن يقوم بها سوى شخص له سمعة واسعة بين المسلمين في مختلف الأقطار، وله علاقات مع الشخصيات العلمية والسياسية بها. ولم يكن يوجد آنذاك شخصية تتوافر على تلك الصفات سوى الأمير عبدالقادر الجزائري الذي كان

(١٠٧) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).
(١٠٨) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

مقيمًا في دمشق، ولذلك اختارته اللجنة لكي يكون ممثلاً لها على مستوى البلدان الإسلامية خارج مكة المكرمة، وكلفته في رسالة بعثت بها إليه بجمع الأموال على مستوى البلاد الإسلامية، على أن يقوم بإرسالها بعد ذلك إلى أمين المال التابع للجنة بمكة المكرمة ليضعها في صندوق التعمير. وفي ذلك تقول الرسالة على لسان الأمير عبدالقادر: "وقد حضر إلينا كتاب من جانب الجمعية المومَى إليها يتضمن التشويق والحث لنا ولكافة المسلمين على المبادرة لهذه الغنيمة الجسيمة. فاعتقادًا بأنكم تحبون اقتناص مثل هذا الخير العميم والثواب العظيم، ورغبةً بأن تشوِّقوا أهل البر والإحسان في كل مكان، وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًّا، في الشوارع المشهورة، مع المسارعة للمساعدة على هذه المساعي المشكورة، والاعتناء بتقديم ما يتحصل [من المال] لطرفنا لأجل أن يرسل مع ما يتحصل بهذا الطرف وغيره، إلى الجمعية المومَى إليها،"[١٠٩]. أما الإعلان فقال: "فكل من يرغب [في] تسليم شيء إعانة لتعمير عين زبيدة يكون إرساله وتسليمه إلى جناب الفاضل الشيخ عبدالقادر الحسيني ابن محيي الدين لأجل إرساله إلى مكة المشرفة للحاج عبدالواحد ابن يونس الميمني لكي يوضع في صندوق إعانة تعمير عين زبيدة"[١١٠]. وهذا التمثيل الخارجي الذي قام به الأمير عبدالقادر للجنة، وكشفت عنه الوثائق لم يشر إليه الشيخ عبدالله الزواوي.

(١٠٩) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

(١١٠) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

٧ - تأمين الأموال المتبرع بها وضمان استخدامها في التعمير:

مما لا شك فيه أن مشروع التعمير الذي تحدثت عنه الوثائق مشروع عظيم، ولذلك فإنه كان يحتاج إلى أموال كثيرة لا يستطيع شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص توفيرها، وإنما يحتاج إلى أمة بجملتها. ومن أجل جمع تلك الأموال شُكِّلت في مكة المكرمة لجنة التعمير بالصورة التي تحدثت عنها الوثائق، وأرسل الإعلان إلى المسلمين في مختلف الأقطار ليبين لهم أهداف المشروع وتُوضّح لهم تفصيلاته، كما أرسلت الرسالة إلى العلماء والمسؤولين لدعوتهم إلى حث المسلمين إلى التبرع بالمال وكل ما من شأنه أن يستخدم في التعمير. ومن ثمة فإنه كان من الطبيعي أن يثار الشك في وقوع ما يؤدي إلى تبذير الأموال التي ستجمع، أو إلى صرفها في غير ما وجهت إليه. ولذلك فإن أصحاب المشروع اعتمدوا منذ البداية في عملهم منهجًا واضحًا يهدف إلى تأمين الأموال التي يتوصلون إلى جمعها، ويقوم ذلك المنهج كما وضحته الوثائق، على ثلاث ركائز:

أ - تعيين لجنة مؤلفة من جماعة من الأشخاص يعتد بهم بلغ عددهم أربعين شخصًا، والغرض من ذلك توسيع تمثيل الفئات الاجتماعية في اللجنة وتكثيف مراقبة الأعمال التي تقع في الميدان، وبشكل خاص فيما يتعلق بصرف الأموال.

ب - اختيار أعضاء اللجنة من الشخصيات البارزة في المجتمع، التي تحظى بمعرفة على مستوى العالم الإسلامي

بشكل عام، فكان منهم على مستوى المكانة الاجتماعية العلماء والأشراف والسادة والتجار، وعلى مستوى الانتماء الجغرافي رجال من مكة المكرمة، والهند، وبلاد المغرب، وغيرها من البلدان الإسلامية. وكان الحرص في اختيار هؤلاء الأشخاص أن يكونوا من أهل الشرف والفضل والديانة والأمانة. وعبَّر الإعلان عن ذلك بالقول: "وقد ترتب مجلس مخصوص من أهل الديانة والأمانة، جملتهم أربعون نفرًا من الأشراف والسادة وعلماء مكة المشرفة وعلماء الهند ومن التجار وغيرهم من كافة الجهات"(١١١). أما الرسالة فعبرت عن ذلك بالقول: "وقد تألفت هنالك جمعية من أساطين علماء مكة المكرمة وشرفائها وفضلاء الهند وتجارها وعظمائها تحت رياسة مفتيها حضرة الفاضل الشيخ عبدالرحمن سراج أفندي". وأكد ذلك عبدالله الزواوي بقوله: "فصدر الأمر من المقامين العاليين بتشكيل لجنة فيها من الأشراف والأهالي وأفاضل المجاورين"(١١٢).

ج - العمل الجماعي لأعضاء اللجنة، وذلك حتى تكون هناك مشورة بينهم في صرف الأموال التي تُجمع، ومراقبة في الحسابات المتعلقة بها. وهذا ما عبر عنه الإعلان بالقول: "وكل ما يلزم إجراؤه [يكون] بمشورة أهل المجلس، وكل ما يصرف [يكون] بالاحتياط وغايت (كذا) الحزم"(١١٣). والفكرة نفسها عبر عنها عبدالله الزواوي بقوله: "وكانت مباشرة

(١١١) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).
(١١٢) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥.
(١١٣) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

الأعمال بنظر الأفاضل الكرام بعد الاستشارة والمداولة في اللجنة المذكورة ولا يعملون عملا إلا بقرارها"[١١٤].

رابعًا - التعريف بالأعلام الذين ذكروا في الوثائق:

تضمنت الوثائق موضوع الدراسة هنا أسماء عشرة (١٠) أشخاص ينقسمون حسب ترتيب ذكرهم في الوثائق إلى أربع مجموعات، الأولى يمثلها المرسل، وهو شخص واحد، وهو جزائري، والثانية يمثلها المرسل إليهم، وهم ستة أشخاص، وجميعهم تونسيون، والثالثة يمثلها بعض أعضاء لجنة التعمير، وهما شخصان، أحدهما حجازي من مكة المكرمة، والثاني هندي. أما المجموعة الرابعة فيمثلها شخص واحد، وهو تاجر من الهند. وهؤلاء الأشخاص هم:

أ - المرسل:

عبدالقادر: ورد هذا الاسم في نهاية الرسالة، وكتب بخط مغربي، ووضع أسفله ختم دائري يحمل اسم صاحبه الكامل (اسمه الشخصي ونسبه) وهو: عبدالقادر بن محيي الدين. وذكر في الإعلان بصيغة أكثر تفصيلا وهي: "الشيخ عبدالقادر الحسيني ابن محيي الدين". وهو الأمير عبدالقادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ/ ١٨٠٧ -١٨٨٣م) زعيم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في المنطقة الغربية من الجزائر بين سنتي ١٢٤٨ -

(١١٤) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥. ولكن مع تلك الاحتياطات كلها في حماية أموال الصندوق، فإن ذلك لم يمنع من حدوث بعض التجاوزات التي أدت في النهاية إلى توقف اللجنة ومنعها من الاستمرار في عملها بعد ثلاث سنوات فقط من تنصيبها. (المصدر نفسه، ص٢٦ -٢٧).

١٢٦٤هـ (١٨٣٢ -١٨٤٧م). وقد توقف عن المقاومة على إثر نجاح فرنسا في استمالة السلطان المغربي مولاي إسماعيل إلى جانبها، مستعملةً في ذلك مختلف الضغوط العسكرية والسياسية، وأصبح السلطان المغربي إثر ذلك متعاونًا مع فرنسا ضد الأمير، وهو ما جعله يفقد سندًا قويًا له في عمله الجهادي ضد الفرنسيين. ولما استسلم للفرنسيين اقتادوه أسيرًا إلى السجن بمدينة تولون على ساحل البحر المتوسط بفرنسا، ومنه إلى سجن آخر في مدينة أمبواز وسط فرنسا، ولم يطلق سراحه إلا بعد خمس سنوات، وكان ذلك في عام ١٢٧٠هـ (١٨٥٢م)، حيث حملته سفينة فرنسية إلى إستانبول، ومنها توجه إلى مدينة بروسة (بورصا) بالأناضول، وأخيرًا استقر به المقام في مدينة دمشق ببلاد الشام، حيث تفرغ للمطالعة والتعليم وقضاء حوائج المسلمين. وبقي الأمير عبدالقادر مقيمًا هناك إلى عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) حيث وافته المنية ودفن في حي الصالحية بجبل قاسيون بدمشق[١١٥]. وقد اشتركت جوانب متعددة في تشكيل شخصية الأمير عبدالقادر: جهادية وعلمية وإنسانية وسياسية، حتى صار شخصية تاريخية ذائعة الصيت على المستويين الإسلامي والعالمي. وإن مراسلاته المتعددة مع رجال السياسة والعلم في العالم الإسلامي (الشام وإستانبول

(١١٥) حول حياة الأمير عبدالقادر راجع: محمد بن الأمير عبدالقادر، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر**، الإسكندرية (مصر)، المطبعة التجارية، ١٩٠٣م، جزءان؛ هنري تشرشل (شارل)، **حياة الأمير عبدالقادر**، تعريب أبو القاسم سعدالله، ط٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

ومصر وفارس وتونس والحجاز) وخارجه، تشهد بوضوح على تلك المكانة[١١٦]. وكانت بعض تلك المراسلات مع الحاكم العثماني في مكة المكرمة الشريف عبدالله بن محمد (عام ١٢٧٤ -١٢٩٤هـ/ ١٨٥٨ -١٨٧٤م)، ثم مع خليفته من بعده شقيقه الشريف حسين بن محمد (١٢٩٤ -١٢٩٧هـ/ ١٨٧٧ - ١٨٨٠م) الذي تشكلت في عهده لجنة تعمير عين زبيدة التي تتعلق بها الوثائق موضوع الدراسة هنا[١١٧]. كما كانت له مراسلات مع شخصيات علمية وسياسية تونسية أيضا[١١٨]، وبعضهم ممن راسله بعد ذلك في شأن مشروع تعمير عين زبيدة، مثل الوزير مصطفى بن إسماعيل[١١٩]، ومحمد بيرم الخامس[١٢٠]. وزيادة على تلك العلاقات الواسعة التي كانت للأمير مع الشخصيات السياسية والعلمية في العالم الإسلامي، فإنه كان هو شخصيًا ينتمي إلى أسرة من الأشراف الذين يحظون بمكانة عالية في نفوس المسلمين، مثله في ذلك مثل أمراء مكة المكرمة آنذاك، وكان يخاطب بسبب ذلك في الرسائل بلقب "الحسيني"[١٢١]، ويوصف بـ"المتمسك بسُنّة جده سيد أنبياء الله بتأييده الخفي وحسن ارتقائه"[١٢٢]، و"سلالة

(١١٦) راجع بعض تلك المراسلات في: محمد بن الأمير عبدالقادر، المصدر نفسه، ١٨٩ وما بعدها.

(١١٧) المصدر نفسه، ص٢٠٢ -٢٠٣.

(١١٨) المصدر نفسه، ١٩٧ -٢٠٢.

(١١٩) المصدر نفسه، ص٢٠١ -٢٠٢.

(١٢٠) الشنوفي، المصدر السابق، ص١١٧.

(١٢١) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب). ومحمد بن الأمير عبدالقادر، المصدر السابق، ص١٩٨، ٢٠١.

(١٢٢) محمد بن الأمير عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٠٧.

الطيبين الطاهرين بني الزهراء"[١٢٣]، وغيرها من الألقاب وأساليب الخطاب الدالة على الاحترام. وكانت تلك المكانة التي تبوأها الأمير على مستوى العالم الإسلامي هي التي أهلته إلى أن يكون ممثلاً للجنة تعمير عين زبيدة في البلاد الإسلامية، إذ كلفته اللجنة بالاتصال بالشخصيات الاعتبارية في الأقطار الإسلامية من أجل نشر خبر مشروع التعمير بين الناس وجمع الأموال من المتبرعين منهم، وإرسالها إليه، لكي يتولى هو بعد ذلك جمعها وإرسالها إلى اللجنة بمكة المكرمة. فيقول في الرسالة التي بعث بها إلى الشخصيات التونسية، وهي موضوع الدراسة هنا: "وقد حضر إلينا كتاب من جانب الجمعية المومى إليها يتضمن التشويق والحث لنا ولكافة المسلمين على المبادرة لهذه الغنيمة الجسيمة [...]، ورغبة بأن تُشوِّقوا أهل البِرّ والإحسان في كل مكان وتنشروا الإعلانات المرسلة لفًّا في الشوارع المشهودة، مع المسارعة للمساعدة على هذه المساعي المشكورة، والاعتناء بتقديم ما يتحصل [من أموال] لطرفنا، لأجل أن يُرسل مع ما يتحصل بهذا الطرف وغيره إلى الجمعية المومى إليها".

ولكن ما ينبغي معرفته أن الأمير عبدالقادر كان في الوقت الذي كُلف فيه بتلك المهمة من جانب لجنة تعمير عين زبيدة، يمر بسنواته القليلة الأخيرة في الحياة التي فارقها يوم ١٩ رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٤ مايو ١٨٨٣م، وهو في سن السادسة والسبعين، ويعني ذلك أنه كان في مرحلة الشيخوخة، وزيادة

(١٢٣) المصدر نفسه، ص٢١٥.

على ذلك فإنه كان يعاني أمراضًا جسدية، أجرى بسببها عملية جراحية، وهو ما يبين أن حالته العقلية والنفسية كانت ضعيفة، وصحته الجسدية كانت متدهورة[١٢٤]، حتى إنه أشيع في عام ١٢٩٦هـ أنه توفي، وتلقت أسرته التعازي بذلك من مختلف الجهات والشخصيات. ولعل ذلك ما جعله غير قادر على متابعة الأخبار في البلاد الإسلامية بصورة محكمة، ومنها تونس، وهو ما جعل مراسلاته التي تشكل موضوع البحث هنا يعتريها بعض الخلل كما سيُبيَّن في العنصر الموالي المتعلق بالتعريف بالشخصيات الذين راسلهم.

ب - المرسل إليهم: وعددهم ست (٦) شخصيات، ذُكرت أسماؤهم في الرسائل الموجهة إليهم، وهم كما يأتي:

١ - السيد محمد بن المازوني: جاءت مخاطبته في الرسالة التي وُجهت إليه بالعبارة الآتية: "الفاضل الأجل السيد محمد بن المازوني وفقه الله"[١٢٥]. وجاء تحديد هويته وعنوانه على الظرف الذي وضعت فيه الرسالة، بالعبارة الآتية: "حضرة سني الهمم الشيخ محمد بن المازوني المحترم"[١٢٦]، وكتب في الزاوية العليا من الجهة اليمنى من الظرف اسم المدينة التي

(١٢٤) حول مرض الأمير ووفاته راجع: محمد بن الأمير عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٤٦ -٢٤٨. وقد وصف المصدر المذكور (ص٢٤٧) حالته تلك بالقول: "ثم عرضت له أمراض حالة شيخوخته، فتلقاها بقوة وحسن الصبر، ولكثرة الأدوية وتعاقبها مع اختلاف موادها حدثت له أمراض أخرى".

(١٢٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، الوثيقة ٤٧. (راجع صورتها في الملحق، رقم١).

(١٢٦) راجع صورة الأظرف في الملحق ٨.

يقيم فيها وهي "الكاف"، وتقع في الجهة الغربية من تونس، على الحدود مع الجزائر. ويفيد لقب "الشيخ" الذي أرفق باسمه، أنه كان من فئة العلماء وليس من فئة الإداريين، وأما الألقاب الأخرى التي نُعت بها وهي: الفاضل، والأجل، وسني الهمم، فتفيد أنه كان ذا مكانة اجتماعية عالية بين قومه. ومن خلال تلك المعطيات فإن تلك الشخصية لا يمكن أن يكون سوى الشيخ محمد بن عمار الميزوني (وهو نفسه المازوني) شيخ زاوية مدينة الكاف التابعة للطريقة الصوفية القادرية، التي كان لها نفوذ واسع بالأراضي التونسية يغطي المناطق الغربية والشمالية منها، ويمتد حتى الأراضي الجزائرية[١٢٧]. ولكن ما يلفت الانتباه هنا أن الشيخ المذكور كان في الواقع قد توفي في عام ١٨٧٨م[١٢٨] (١٢٩٥هـ)، وهو التاريخ الذي تشكلت فيه لجنة عين زبيدة، وهو سابق بنحو سنتين عن تاريخ كتابة الرسالة التي وجهها إليه الأمير عبدالقادر، وهو ٢١ شعبان ١٢٩٧هـ (٢٩ يوليو ١٨٨٠م). ويعني ذلك أن الأمير عبدالقادر الذي كان يعاني آنذاك - كما سبقت الإشارة - آثار الشيخوخة ومتاعب المرض لم يصل إليه خبر تلك الوفاة، وكان هذا واحدًا من مظاهر الخلل الذي تطرق إلى عمله المتعلق بجمع الأموال لصالح عين زبيدة.

(١٢٧) العجيلي (التليلي)، **الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية ١٨٨١ -١٩٣٩م**، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٢م، ص٣٩ -٤٢. وراجع أيضًا:

Green (Arnold, H), *The Tunisian ulama 1873 - 1915*, Leiden, E. J. Brill, 1978, p 66, n 1.

(128) Green, Ibid, p 66, n 1.

٢ - السيد مصطفى بن إسماعيل: هو أحد رجال الدولة التونسية في فترة ما قبل الحماية الفرنسية، ولد بمدينة بنزرت[١٢٩] في نحو عام ١٢٦٧هـ (١٨٥٠ -١٨٥١م)، وتوفي عنه والده وهو صغير السن، فتكفل بتربيته أحد موظفي السلطة التونسية اسمه زهير، ثم التحق بخدمة الباي محمد الصادق (١٢٧٦ -١٢٩٩هـ/ ١٨٥٩ -١٨٨٢م). وبفضل الدسائس التي كان ماهرًا في حبكها استطاع أن يترقى في الرتب العسكرية المختلفة إلى أن صار أمير لواء. ولكي يفلح في تحقيق مآربه فإنه كان يلجأ حتى إلى ممارسة السحر. واشتهر بكثرة الإنفاق على نفسه، وارتداء الثياب الفاخرة، ووضع المجوهرات، وتزيين منزله بالأثاث الثمين. ونظرًا إلى العلاقة الوطيدة التي أقامها مع الباي محمد الصادق، فإنه أسند إليه وظائف إدارية سامية مثل وزارة الشورى، كما كلّفه بأداء مهمات ديبلوماسية في باريس، وعينه أخيرًا يوم ٢٦ شعبان ١٢٩٥هـ (٢٤ أغسطس ١٨٧٨م)، في منصب الوزارة الكبرى خلفًا للوزير محمد خزندار. واستغل مصطفى بن إسماعيل ذلك المنصب من أجل تحقيق مآربه الشخصية إلى أبعد الحدود، حتى إنه كان يأخذ لنفسه ما تقع عليه يداه من أموال وعقارات وأثاث ومجوهرات ووثائق في قصر الباي، وكان واقعًا تحت تأثير القناصل الأوروبيين في تونس ومنهم القنصل الفرنسي بشكل خاص، وكان يتلقى منه التوجيهات

(١٢٩) تقع مدينة بنزرت في المنطقة الشمالية من الجمهورية التونسية، وهي تطل على البحر المتوسط، وتبعد من مدينة تونس (العاصمة) بنحو ٧٠ كلم.

التي يسير في ضوئها شؤون البلاد. ولذلك اشتهر عهده بانتشار الفساد المالي والإداري والقضائي والاجتماعي في تونس، زيادة على تدخل الدول الأوروبية في شؤون تونس الداخلية. وقاد ذلك الوضع كله إلى فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٨هـ (١٨٨١م)[١٣٠]. وعلى إثر ذلك عُزل مصطفى بن إسماعيل من منصبه، وغادر تونس إلى إستانبول حيث وافته المنية سنة ١٣٠٤هـ (١٨٨٧م)، وهو في حالة فقر كبير[١٣١]. وخوطب في الرسالة التي أرسلت إليه من الأمير عبدالقادر بالعبارة الآتية: "الفاضل الأجل السيد مصطفى بن

(١٣٠) تم ذلك بموجب معاهدة وقعت بين فرنسا والباي محمد الصادق في قصر باردو بتونس يوم ١٢ مايو ١٨٨١م (١٣ جمادى الآخرة ١٢٩٨هـ). راجع نصها العربي والفرنسي في: مؤلف مجهول، **سيرة مصطفى بن إسماعيل**، تحقيق رشاد الإمام، تونس، وزارة الشؤون الثقافية، ١٩٨١، ص٩٥ -٩٦، و١٢١ -١٢٧. وكذلك في: العامري (محمد الهادي)، **تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول**، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٤م، ص٤٠٩ -٤١٠. مع الإشارة إلى أن النصين الفرنسي والعربي للمعاهدة كليهما مؤرَّخان بالتاريخ الميلادي دون التاريخ الهجري.

(١٣١) هناك تفصيلات كثيرة عن حياته وسرقاته وفساده وعلاقاته المشبوهة الداخلية والخارجية، في: مؤلف مجهول، مصدر سابق. وقد أضاف المحقق (رشاد الإمام) إلى النص الأصل ملحقًا تضمن عدة وثائق تثبت سرقات مصطفى بن إسماعيل وفساده. وراجع كذلك: بوذينة، **مشاهير التونسيين**، ط٢، تونس، المطابع الموحدة، ١٩٩٢م، ص٦٣٠؛ العامري المصدر السابق، ص٤٠٤ -٤٠٥؛ بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، ٥ أجزاء في مجلدين، ط جديدة، بيروت، دار صادر، د. تا، (طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الإعلامية، ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥ - ١٨٨٦م)، ج٢، ص٩٧ -٩٨؛ السنوسي (محمد)، **الرحلة الحجازية**، =

إسماعيل [...][١٣٢] وفقه الله"[١٣٣]. مع العلم أن هذه ليست أول مرة يراسله الأمير، وإنما راسله قبل ذلك لما تولى الوزارة في عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م[١٣٤].

٣ - السيد الطاهر النيفر: هو محمد الطاهر بن الشيخ محمد النيفر الأكبر، ولد عام ١٢٤٠ أو ١٢٤١هـ (١٨٢٥م) بمدينة تونس، وتوفي عام ١٣١١ أو ١٣١٢هـ (١٨٩٤م). وتلقى تعليمه بجامع الزيتونة، وصار واحدًا من كبار علماء المذهب المالكي بتونس. وتولى القضاء المالكي عام ١٢٨٩ أو ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، وبقي يمارس تلك الوظيفة حتى وفاته. وأُسندت إليه عام ١٣٠٩ أو ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) وظيفة أخرى علاوة على القضاء هي أمانة بيت المال. وكانت له علاقة وطيدة مع الوزير خير الدين، وكان يتبادل الرأي معه حول العمل الإصلاحي في تونس. وكان يباشر التدريس والإمامة والخطابة في جامع النفافتة، ثم بجامع باب البحر بمدينة تونس[١٣٥]. وتعد أسرة النيفر من أشهر الأُسر العلمية

= تحقيق علي الشنوفي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٢، ص١١٢، هامش٧، وص١١٧، هامش٤؛ بن بليغيث (الشيباني)، **النظام القضائي في البلاد التونسية ١٨٥٧ -١٩٢١م**، صفاقس (تونس)، مكتبة علاء الدين، ٢٠٠٢م، ص٣٢٣ -٣٣٥.

(١٣٢) [...] عبارة إضافية كتبت فوق السطر ولكنها غير واضحة. (راجع صورة الوثيقة في الملحق ٦).

(١٣٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، الوثيقة ٥٧. (راجع صورتها في الملحق، رقم ٦).

(١٣٤) محمد بن عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٠١ -٢٠٢.

(١٣٥) بوذينة، المصدر السابق، ص٦٠٠ -٦٠١.

التونسية، وينتمي إليها عدد معتد به من العلماء، وهي لا تزال تتوارث العلم إلى يومنا هذا. وخوطب في الرسالة التي أرسلت إليه من الأمير عبدالقادر كما يأتي: "الفاضل الأجل السيد الطاهر النيفر قاضي المالكية بتونس المحروسة وفقه الله"(١٣٦).

٤ - السيد الشاذلي: (١٢٢١ -١٣٠٧هـ/ ١٨٠٧ -١٨٩٠م)، وهو محمد الشاذلي بن عثمان بن صالح، ولد بتونس، وتلقى تعليمه بجامعها الكبير (جامع الزيتونة)، وبعد تخرجه عمل مدرسًا به، ثم بالمدرسة الحسينية. وعندما أسس أحمد باي المدرسة الحربية في مدينة "باردو" (قرب مدينة تونس) عهد إليه وظيفة التدريس والتربية بها. وعين قاضيًا بالمحكمة المالكية، وصار يحضر جلسات المجلس الشرعي التي كانت تعقد بحضور الباي (الحاكم في تونس). وفي سنة ١٢٧٧ أو ١٢٧٨هـ (١٨٦١م) عين مفتيًا للمذهب المالكي، ونال لقب شيخ الإسلام. وبقي يؤدي وظيفة الإفتاء حتى عام ١٣٠١ أو ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) حين استقال بسبب الوضع الجديد الذي ترتب عن فرض الحماية الفرنسية على البلاد التونسية، ورجع إلى التدريس بجامع الزيتونة، وبقي كذلك حتى وافته المنية عام ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) وترك مؤلفًا بعنوان "رسائل فقهية"، تناول فيه موضوع "إعطاء أراضي الوقف المشجرة على وجه الإنزال"(١٣٧). وخوطب في الرسالة الموجهة إليه من

(١٣٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، الوثيقة ٤٨. (راجع صورتها في الملحق، رقم ٢).

(١٣٧) بوذينة، المصدر السابق، ص٥٢٧.

الأمير عبدالقادر بالعبارة الآتية: "الفاضل الأجل السيد الشاذلي مفتي المالكية بتونس"[١٣٨].

٥ - السيد محمد بيرم: هو محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد بيرم الثالث (١٢٥٥ -١٣٠٧هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٨٩م). وهو فقيه ومؤرخ وصحفي ومفكر وسياسي ورحالة تونسي معروف. ينحدر من أُسرة عثمانية قدِم جدّها الأعلى حسين بن بيرم إلى تونس في السنوات الأولى من فتحها على يد العثمانيين في عام ٩٨١ هـ (١٥٧٣ -١٥٧٤م)، وكان الفتح بقيادة الوزير سنان باشا. واشتهرت تلك الأسرة بالانخراط في الوظائف الإدارية والعلمية على امتداد العهد العثماني. وولد صاحب الترجمة بتونس، وتلقى تعليمه بجامعها الكبير (جامع الزيتونة). ومن أساتذته البارزين: سالم بوحاجب، والشاذلي بن صالح، ومحمد الطاهر بن عاشور. ولما تولى خير الدين[١٣٩] الوزارة الكبرى عام ١٢٩١هـ (١٨٧٣م) تقرّب

(١٣٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، الوثيقة ٥١. (راجع صورتها في الملحق، رقم ٣).

(١٣٩) خير الدين: ١٢٣٨ -١٣٠٨هـ (١٨٢٠ -١٨٩٠ م)، أصله من قبيلة أباظة الشركسية، التي كانت تقطن بالشمال الغربي من بلاد القوقاز، اختطف من أسرته وبيع في إستانبول لنقيب الأشراف تحسين بك الذي اتخذه رفيقًا لابنه الوحيد، وعلمه العلوم الإسلامية، ولما توفي الابن وصار خير الدين عمره ١٧ سنة، باعه سيده لمبعوث الباي التونسي إلى إستانبول أحمد باشا، وحمله ذلك المبعوث معه إلى تونس عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٧م)، فألحقه الباي بمماليكه وأحسن تعليمه، وأسند إليه الوظائف والرتب العسكرية، حتى صار وزيرًا أكبر عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م)، واستمر في وظيفته تلك حتى عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٧) حيث انسحب من الوظائف الرسمية وتوجه إلى إستانبول، وهناك عينه السلطان عبدالحميد الثاني وزيرًا أعظم، ولكنه لم =

بيرم الخامس منه وجاهره بأفكاره السياسية الميالة إلى التغيير والإصلاح، فقرّبه خير الدين منه وعهد إليه إدارة "جمعية الأوقاف"، وهي جهاز إداري أحدثه الوزير المذكور لإعادة تنظيم الأوقاف وإدارتها بطريقة حديثة وفعالة. وفي عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٤م) عيّنه، زيادة على تلك الوظيفة، مديرًا لمطبعة الدولة التونسية، ورئيسًا لجريدتها الرسمية المعروفة باسم "الرائد التونسي"، كما أوكل إليه وضع البرنامج التعليمي في المدرسة الصادقية(١٤٠)، وإدارة مكتبتها. وعندما تولّى مصطفى بن إسماعيل الوزارة في عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) وبدأ معه عهد الفساد الكبير في تونس، اضطر بيرم الخامس إلى مغادرة البلاد، وكان ذلك في ١٥ من شوال ١٢٩٦هـ (٢ أكتوبر ١٨٧٩م)، فتوجه إلى مصر، ومنها إلى البقاع المقدسة حيث أدى فريضة الحج، وبعد ذلك توجه إلى الشام، ثم إلى إستانبول التي وصلها في صفر ١٢٩٧هـ (يناير ١٨٨٠م). وبعد

= يستمر في منصبه الجديد سوى سنة وثمانية أشهر (١٢٩٥ - ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨ -١٨٧٩م). وعرف خير الدين بأفكاره الإصلاحية على نمط الأنظمة الأوروبية، وعبر عن تلك الأفكار في مؤلفه: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط١، تونس، ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م)؛ وط٢، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م. (راجع حوله: محفوظ (محمد)، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ج٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م، ص٢٧١ -٢٧٩م).

(١٤٠) المدرسة الصادقية: مدرسة حديثة تتبنى النظام الأوروبي في التعليم، أسسها محمد الصادق باي في مدينة تونس عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بإشارة من الوزير خير الدين، لتقدم تعليمًا حديثًا على الطريقة الأوروبية، وأسست لتقابل مدرسة جامع الزيتونة التي تقدم تعليمًا تقليديًا. وهي لا تزال قائمة إلى اليوم.

نحو أربع سنوات من ذلك، وبالتحديد في المحرم ١٣٠٠هـ (نوفمبر ١٨٨٤م)، توجه إلى مصر واستقر بها إلى أن وافته المنية يوم ٢٥ من ربيع الآخر ١٣٠٧هـ (١٨ ديسمبر ١٨٨٩م)، ودفن رحمه الله، قرب ضريح الإمام الشافعي بالقاهرة[١٤١]. وكانت له بمصر نشاطات متعددة، فأصدر جريدة "الإعلام"، كما شارك في تأسيس "جمعية الأوقاف" المصرية، وعُين قاضيًا في محكمة القاهرة الابتدائية. وفي مصر أيضًا قام بنشر رحلته الشهيرة المسماة: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"[١٤٢]. ومما يلفت الانتباه هنا أن محمد بيرم خوطب في الرسالة التي أُرسلت إليه من الأمير عبدالقادر، بصفة "قاضي الحنفية في تونس"، وذلك كما يأتي: "الفاضل الأجل السيد محمد بيرم قاضي الحنفية بتونس وفقه الله"[١٤٣]. ولكن تلك الصيغة في الخطاب

(١٤١) هناك نصان حول ترجمة محمد بيرم الخامس، وكلاهما في مؤلفه: صفوة الاعتبار. فالنص الأول بقلم محمد بيرم الخامس نفسه (**صفوة الاعتبار**، مصدر سابق، ج٢، ص٩٤ -١٠٩)، والنص الثاني وهو أوسع من النص الأول، وكتبه ابنه محمد الهادي (صفوة الاعتبار، مصدر سابق، ج٥، الملحق، وهو مرقم بالحروف الأبجدية. وقد جمع المحقق التونسي علي الشنوفي النصين وعلق عليهما، وأضاف إليهما عددًا من الوثائق المتعلقة بمحمد بيرم الخامس، وكذا أضاف جدولاً تاريخيًا بالمحطات المختلفة التي مرت بها حياته من ولادته إلى وفاته، ونشر كل ذلك في كتاب مستقل هو: ترجمة محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، قرطاج (تونس)، منشورات بيت الحكمة، ١٩٨٩م.

(١٤٢) مصدر سابق.

(١٤٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، المصدر السابق، الوثيقة ٥٤. (راجع صورتها في الملحق، رقم ٤).

كانت في الحقيقة منافية للواقع، إذ لا يوجد ما يدل على أن محمد بيرم كان في التاريخ الذي كتبت فيه الرسالة - وهو ١ رمضان ١٢٩٧هـ (٦ أكتوبر ١٨٨٠م) - يشغل تلك الوظيفة، بل إنه لم يتولَّها في حياته أبدًا كما يستخلص ذلك من سيرته التي سجلها هو بقلمه(١٤٤)، وكذلك تلك التي سجلها عنه بعد وفاته ولدُه محمد الهادي(١٤٥). وزيادة على ذلك فإن محمد بيرم لم يكن في التاريخ الذي كتبت فيه الرسالة في تونس، وإنما كان قد غادرها نحو المشرق، دون أن يعود إليها بسبب خلافه مع الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل، وكان آنذاك مقيمًا في إستانبول التي قدم إليها من البقاع المقدسة في شهر صفر ١٢٩٧هـ (يناير ١٨٨٠م)، وبقي بها في المرحلة الأولى إلى شعبان ١٢٩٨هـ (يوليو ١٨٨١م)(١٤٦). ويتضح من ذلك خلل آخر اعترى عمل الأمير عبدالقادر ضمن لجنة

(١٤٤) راجعها في: بيرم الخامس التونسي، المصدر السابق، ج١، ص٩٤ - ١٠٩. وكذلك في: الشنوفي، المصدر السابق، ص٣٥ -٦٤.

(١٤٥) راجعها في: بيرم الخامس التونسي، المصدر السابق، ج٥، الملحق؛ وكذلك في: الشنوفي، المصدر السابق، ص٦٥ -١٧٨. وهناك تفسير يمكن تقديمه لذلك الخطأ الذي وقع فيه الأمير عبدالقادر في مخاطبة محمد بيرم بلقب قاضي الحنفية، وهو أنه اختلطت عليه وظيفة القضاء، وهي وظيفة شرعية، مع وظيفة شرعية أخرى مثلها تولاها محمد بيرم في تونس، وهي رئاسة "جمعية الأوقاف" اَلتي أسندها إليه الوزير خير الدين عام ١٢٩١هـ (١٨٧٥م)، وبقي فيها إلى أن جرده منها الوزير مصطفى بن إسماعيل بعدما علم بتوجهه إلى إستانبول في شهر صفر ١٢٩٧هـ (يناير ١٨٨٠م)، وقراره الإقامة بها وعدم عودته مرة أخرى إلى تونس (راجع: الشنوفي، المصدر السابق، ص١٤ -١٥، ١١٧ -١٢٠).

(١٤٦) راجع يوميات حياته في: الشنوفي، المصدر السابق، ص١٤.

تعمير عين زبيدة، ومرد ذلك ـ كما سبقت الإشارة إلى عجزه عن متابعة الأخبار الخارجية بشكل عام، بسبب كبر سنه ومرضه كما سبقت الإشارة.

٦ - السيد محمد بن الخوجة: (١٢٦٨ -١٣٢٥هـ/ ١٨٤٣-١٩٠٧م)، وهو أحد علماء تونس في العصر الحديث، جمع في تكوينه بين العلم الشرعي وعلوم الأدب واللغة. وتولى التدريس، فضلاً عن الإمامة والخطابة بجامع سيدي محرز بمدينة تونس. كما تولى وظيفة المفتي الحنفي أيضًا[١٤٧]. وتتم مراسلاته مع محمد بن عثمان السنوسي[١٤٨] عن أنه كان رجلاً بارعًا في البلاغة ونابغًا في الفصاحة، وكان يجمع بين كتابة النثر وقول الشعر[١٤٩]. وجاءت مخاطبته في الرسالة الموجهة إليه من الأمير عبدالقادر كما يأتي: "الفاضل الأجل السيد محمد بن الخوجة مفتي الحنفية بتونس المحروسة وفقه الله"[١٥٠].

(١٤٧) بوذينة، المصدر السابق، ص٤٩٣.

(١٤٨) محمد بن عثمان السنوسي (١٢٦٧ -١٣١٨ هـ/ ١٨٥١ -١٩٠٠م): أحد علماء تونس في القرن ١٣هـ (١٩م)، وخريج جامعها الكبير (الزيتونة)، اشتغل في "جمعية الأوقاف" إلى جانب محمد بيرم الخامس، ثم عمل محررًا لجريدة الرائد التونسي، وأدى فريضة الحج عام ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م)، وسجل خلال ذلك مشاهداته في البلاد الإسلامية التي زارها، في رحلته الحجازية التي اشتهر بها. (راجع ترجمته في: السنوسي، المصدر السابق، ج٣، ص١١ -١٣).

(١٤٩) راجع تلك المراسلات في: السنوسي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٣، ٣٤٧، ٣٤٩.

(١٥٠) الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، الوثيقة رقم ٥٦. (راجع صورتها في الملحق، رقم ٥).

ج - أعضاء لجنة التعمير:

١ - الشيخ عبدالرحمن سراج: هو الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن سراج الحنفي (١٢٤٩ -١٣١٤هـ/ ١٨٣٣ -١٨٩٦م)، ولد في مكة المكرمة، وورث العلم عن والده عبدالله سراج الذي كان له باع في علوم التفسير والحديث والفتوى بمكة المكرمة(١٥١). وعندما كبر عبدالرحمن خلف والده في المكانة العلمية بمكة، وكذلك في وظيفة الإفتاء أيضًا، زيادة على توليه رئاسة هيئة العلماء. وقصده الطلبة من أقطار إسلامية متعددة للدراسة على يديه، وكان منهم مصطفى بن خليل التونسي(١٥٢)، وعبدالقادر الكوهن الفاسي(١٥٣). وكانت وفاته في مصر. ومن مصنفاته: "ضوء السراج على جواب المحتاج" في الفتاوى، ومجموعة في الفقه تشتمل على غرائب المسائل(١٥٤). وورد اسمه في الوثائق موضوع الدراسة هنا، بصفته رئيسًا للجنة التعمير. فأشير إليه في الإعلان بالعبارة الآتية: "وقد تقرر

(١٥١) راجع ترجمته في: الكتاني (عبدالحي بن عبدالكبير)، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٢، الترجمة رقم ٤١٠، ص٧٥٢ -٧٥٣.

(١٥٢) راجع ترجمته في: المصدر نفسه، ج١، الترجمة رقم ١٧٣، ص٣٧٦.

(١٥٣) راجع ترجمته في: المصدر نفسه، ج١، الترجمة رقم ٢٨٢، ص٤٩٠ -٤٩١.

(١٥٤) كحالة (عمر رضا)، **معجم المؤلفين**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج٥، ص١٤٩. وراجع أيضًا: البغدادي (إسماعيل باشا)، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، (طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، إستانبول، وكالة المعارف، ١٨٥١)، ج١، ص٥٥٨.

أن يكون رئيس هذا المجلس (أي لجنة التعمير) الفاضل الجليل مولانا الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي السادة الأحناف أطال الله بقاءه، ووفّقه لما يحبه ويرضاه"[١٥٥]، كما أشير إليه في الرسالة أيضًا، وذلك كما يأتي: "وقد تألفت هنالك جمعية من أساطين علماء مكة المكرمة وشرفائها... تحت رياسة مفتيها حضرة الفاضل الشيخ عبدالرحمن سراج أفندي"[١٥٦]. وبهذه الصفة نفسها ذكره عبدالله الزواوي، فقال: "ونظموا اللجنة (أي لجنة التعمير) رئيسها مفتي الأحناف بمكة المكرمة فضيلتلو[١٥٧] المرحوم الشيخ عبدالرحمن سراج رئيسًا فخريًا يسوق المسلمين لهذا العمل الخيري"[١٥٨].

٢ - **الحاج عبدالواحد بن يونس الميمني:** ورد اسمه في الإعلان، وأشير إليه بعبارة: "الأجل الحاج عبدالواحد بن يونس الميمني شريك زكريا محمد كميني من تجار كلكُته". وكما يفهم من سياق العبارة أن ذلك الرجل كان من جماعة التجار، وكان يعمل شريكاً لتاجر آخر شهير هو محمد كميني، وكانا كلاهما من مدينة كلكته (كلكُتا) بالهند[١٥٩]. وقد بيّن لنا

(١٥٥) راجع نص الإعلان في العنصر الثاني، (ب).

(١٥٦) راجع نص الرسالة في العنصر الثاني، (أ).

(١٥٧) فضيلتلو: لقب تركي يستخدم في الخطاب الموجه للشخصيات المهمة في الدولة، وهو مركب من اللفظة التركية ذات الأصل العربي (فضيلت)، بمعنى (الفضيلة)، ومعها الأداة (لو) الدالة على الصفة، بمعنى صاحب، والكل يعني صاحب الفضيلة.

(١٥٨) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٥.

(١٥٩) مدينة كلكتا: سبق التعريف بهذه المدينة في هامش رقم (٥٨).

الإعلان الوظيفة التي كلف بها الحاج عبدالواحد ضمن لجنة تعمير العين، وهي الإشراف على جمع المال وتوجيه النفقات في عمليات شراء مستلزمات التعمير ودفع أجور العمال وغيرها من أوجه الإنفاق المالي التي يتطلبها مشروع الإعمار. وتلك الوظيفة هي التي يقوم بها الموظف الذي يسمى في الإدارات الحديثة "المحاسب المالي"، أو "أمين المال". ووصفت المهمات التي كلف ذلك الرجل بها، في الإعلان (المنشور)، كما يأتي: "رئيس على إجراء التعميرات والمصاريف والمشتريات". وهي وظيفة تناسب العمل الذي كان يشتغل به في حياته وهو التجارة". وقد ذكره عبدالله الزواوي أيضًا عند حديثه عن تشكيل لجنة التعمير، ولكن دون أن يذكر معه اسم والده (يونس) كما ورد في الإعلان، غير أنه ذكر لقبه الذي كان يعرف به بين الناس، وهو "وحدانة" فقال: "وصادف وجود أشخاص كرام مثل الحاج عبدالواحد الشهير بالحاج وحدانة الميمني، والحاج عبدالله عرب الميمني". وبعد ذلك بيّن نشاطه ضمن لجنة التعمير مع من كان معه، فقال: "فساعدوا على هذا العمل الخيري أحسن مساعدة، وعمروا ما تيسّر لهم تعميرُه إلى أن جرى الماء بمكة"(١٦٠). وقال مرة أخرى مبينًا وظيفته: "ويرأسهم بالنظر للعمل والصرف المرحوم الحاج عبدالواحد وحدانة، فإنه كان أمين الصندوق"(١٦١).

(١٦٠) الزواوي، المصدر السابق، ص٢٤.

(١٦١) المصدر نفسه، ص٢٥.

د - التاجر الهندي:

٣ - **محمد كميني:** ورد اسمه في الإعلان، وذلك على سبيل التعريف بشخصية الحاج عبدالواحد بن يونس الميمني الذي عين أمينًا لصندوق التعمير كما هو مبين في الفقرة السابقة، فذُكر بأن الرجلين كانا شريكين في التجارة، وهما من مدينة كلكُته بالهند. وهذا الشخص لم تسند إليه وظيفة رئيسة ضمن اللجنة، ولكن يمكن أن يكون أحد أعضائها الذين يقدمون خدمة في الاتصال بالجهات الخارجية.

خاتمة:

بعد عرض الوثائق موضوع الدراسة بالصورة المبينة في العناصر التي تضمنها العمل، يمكن تقديم النتائج المستخلصة من ذلك في النقاط الآتية:

١ - تقديم وثائق جديدة حول عين زبيدة لها أهمية كبيرة في التأريخ لذلك المعلم الإسلامي الشهير في مكة المكرمة، وبشكل خاص فيما يتعلق بعملية التعمير التي تقرر القيام بها في العين في عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م).

٢ - تقدم الوثائق معلومات متكاملة مع تلك التي قدّمها الشيخ عبدالله الزواوي في رسالته حول عين زبيدة، وتحدث فيها عن موضوع التعمير المذكور، كما تحدثت عنه الوثائق أيضًا. فهناك معلومات كانت معروفة لدى الباحثين من خلال رسالة عبدالله الزواوي، فصارت من خلال الوثائق مؤكدة، أو ازدادت وضوحًا، ومعلومات أخرى لم يذكرها عبدالله الزواوي وكانت بسبب بذلك مجهولة، فصارت بهذه الوثائق معروفة.

٣ - إن حملة التبرع التي قادها الأمير عبدالقادر لجمع الأموال اللازمة لتعمير "عين زبيدة"، وأرسل من أجلها إلى الشخصيات العلمية والسياسية الرسالة والإعلان موضوع دراستنا هنا، إذا كانت نتائجها في البلاد الإسلامية الأخرى - ومنها بلاد الشام - غير معروفة، فإنه يمكن معرفة نتائجها في تونس، إذ أقل ما يمكن أن توصف به تلك النتائج أنها كانت غير مرضية، ويعود سبب ذلك إلى الوضع العام غير المناسب الذي كانت تعيشه تونس في التاريخ الذي جرت فيه المراسلات وهو عام ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م). فتميز ذلك الوضع بانتشار الفساد في البلاد، وعموم الفوضى السياسية بها، زيادة على تهديدات القوى الأوروبية بالتدخل لحماية مصالحها فيها بعد اتهام الحكومة التونسية بالعجز عن إدارة شؤون البلاد وفرض الأمن بها، وهو ما أدى في السنة الموالية (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) إلى وقوع التدخل العسكري الفرنسي في تونس وفرض الحماية عليها.

٤ - إن المراسلات التي أجراها الأمير عبدالقادر مع الشخصيات السياسية والعلمية في تونس في إطار المهمة التي كلف بها من لجنة تعمير عين زبيدة، قد شابها خلل بسبب عدم توافر المعلومات الكافية حول تلك الشخصيات لديه، بل حتى عن الوضع الذي كان سائدًا في تونس بوجه عام. وظهر ذلك الخلل في أن محمد بن المازوني (أو الميزوني كما تذكره المصادر التونسية) وهو من تلك الشخصيات، وهو شيخ الطريقة القادرية بمدينة الكاف - كان قد توفي قبل سنتين من تاريخ كتابة الرسالة التي وجهت إليه. فكانت وفاته في عام ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ)، أما الرسالة فقد كتبت في ٢١

شعبان ١٢٩٧هـ (٢٩ يوليو ١٨٨٠م). وشخصية أخرى، وهو محمد بيرم الخامس، كان قد غادر تونس نحو بلاد المشرق، ولم يعد إليها، وكان في التاريخ الذي كتبت فيه الرسالة إليه مقيمًا في إستانبول. أما الوزير مصطفى بن إسماعيل فكان شخصية غارقة في الفساد المالي والإداري في تونس، حتى إنه كان أكبر متسبب في فرض الحماية على تونس في عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م. وغياب تلك المعلومات عن الأمير عبدالقادر كان مرده - كما يبدو - إلى اختلال حالته الصحية في السنوات القليلة التي سبقت وفاته، بسبب كبر سنه من جهة، والمرض الذي ألمّ به من جهة أخرى، وهو ما أثر كثيرًا في علاقته بالمحيط الذي كان يعيش فيه، ومنعه من متابعة أخبار الشخصيات الذين كانت له علاقة بهم، وكان بعضهم ممن راسلهم في تونس بشأن موضوع تعمير عين زبيدة. وأدت تلك الحالة الصحية المتدهورة التي صار يعيش فيها الأمير في النهاية، إلى وفاته يوم ١٩ رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٤ مايو ١٨٨٣م، أي بعد ثلاث سنوات فقط من كتابته الرسائل موضوع الدراسة هنا.

٥ - نظرًا إلى الوضع العام الذي ساد البلاد التونسية في المدة التي أرسلت فيها الرسائل المذكورة، فإنه يُشك في وصول تلك الرسائل إلى المرسل إليهم في تونس وتسلمهم لها؛ لأنه لو تم ذلك لما وجدت تلك الرسائل اليوم في الأرشيف الوطني التونسي، إذ بصفتها مراسلات شخصية فإنها كانت ستبقى عند أصحابها ولا تحفظ في أرشيف الدولة. ولذلك يبدو أن إدارة الوزير مصطفى بن إسماعيل الفاسدة التي كانت تدير شؤون البلاد في تلك المدة، قد احتجزت الرسائل

ولم تسلمها إلى أصحابها، أو أن تلك الرسائل لم تصل إلى تونس إلا بعد وقوع الحماية الفرنسية يوم ١٣ جمادى الآخرة ١٢٩٨هـ/ ١٢ مايو ١٨٨١م، وهو ما أدى إلى تغير نظام الحكم في تونس، ومن ثم إلى حجز الرسائل عند وصولها إلى البلاد وعدم تسليمها لأصحابها. وسواء كان السبب هذا أو ذاك، فإن ذلك الحجز هو الذي أدى إلى حفظها في الأرشيف الوطني التونسي، ومنح الفرصة اليوم للعثور عليها واستغلالها في البحث.

الملحقات: صور الوثائق (الرسالة والإعلان والأظرف)

١ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد محمد بن المازوني
(بمدينة الكاف)[١٦٢]

(١٦٢) الأرشيف الوطني التونسي، المصدر السابق، الوثيقة ٤٧.

٢ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد الطاهر النيفر قاضي المالكية(١٦٣)

(١٦٣) المصدر نفسه، الوثيقة ٤٨.

٣ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد الشاذلي مفتي المالكية[١٦٤]

(١٦٤) المصدر نفسه، الوثيقة ٥١.

٤ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد محمد بيرم(١٦٥)

(١٦٥) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٤.

٥ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد محمد بن الخوجة مفتي الحنفية(١٦٦)

(١٦٦) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٦.

٦ - صورة للرسالة الموجهة إلى السيد مصطفى بن إسماعيل (الوزير الأكبر)[١٦٧]

(١٦٧) المصدر نفسه، الوثيقة ٥٧.

٧ - صورة للإعلان (المنشور)[١٦٨]

(١٦٨) المصدر نفسه، وبه توجد إحدى عشرة (١١) نسخة من الإعلان، أرقامها هي: ٤٦، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٠ مكرر، ٦١.

٨ - صُوَر للأظرف التي أرسلت فيها الرسائل والإعلان إلى المرسل إليهم:

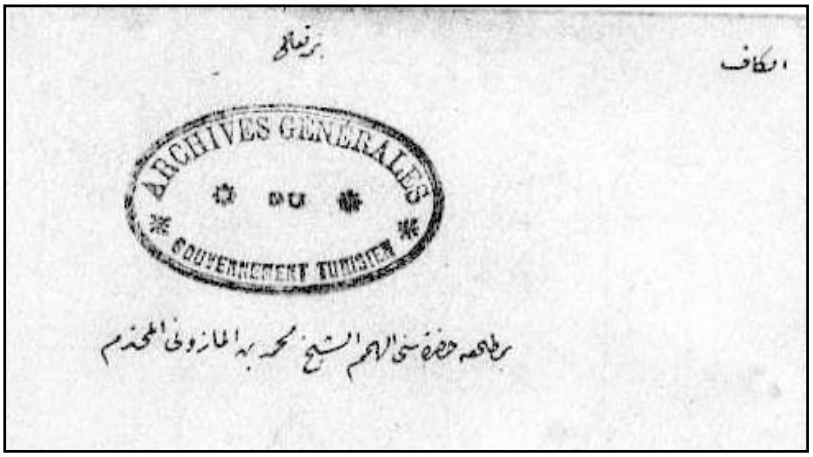

ARCHIVES GENERALES
GOUVERNEMENT TUNISIEN

ARCHIVES GENERALES
GOUVERNEMENT TUNISIEN

ARCHIVES GENERALES
GOUVERNEMENT TUNISIEN